

9
روايات مصرية للجيب
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
عملية إكس ١٠٧

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنــهارًا .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًــا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بــها سوى أصحابــها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق

عملية إكس - ١٠٧

(وموضوعات أخرى)

المبعـــوث ..

(قصة واقعية)

على الرغم من الحرب الدائرة بلا انقطاع ، فى (أوروبا) و(آسيا) ، وجزء من شمال (إفريقيا) ، فى تلك الفترة من بدايات صيف علم ١٩٤١م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، مضت ليلة العاشر من مايو هادئة نسبيًا ، بالنسبة للعاصمة البريطانية (لندن) ، إذ توقَّفت الطائرات الألمانيـة عن قصفها المستمر ، لأول مرة منذ أسبوعين كاملين ، وصفا الطقس على نحو غير مسبوق ، مما منح سكان المدينة فرصة نادرة ، للخروج من المخابئ والبحث عن متنفس للهواء النقى ، بعد أن نشرت القنابل النازية النار والدمار ، على نحو لم تفعله أية حرب سابقة ، عبر التاريخ كله .

وفى مقر المخابرات البريطانية ، استغلَّ الرجال فترة الهدوء النسبى هذه ، فى ترتيب أوراقهم ، ومراجعة نتائج عملياتهم ، التى لم تشهد ، فى تاريخهم كله ، نشاطًا جمًا ، وانتشارًا محمومًا ، مثلما شهدته فى تلك الأيام العصيبة ..

فالجيوش النازية اجتاحت (أوروبا) كلها تقريبًا ، وانتشرت فى (آسيا) على نحو مخيف ، وراحت تحقق انتصارات متتالية قوية ، على نحو أوحى بأنه لن يمضى علم أو عامان ، حتى يرتفع العلم النازى على (أوروبا) بأكملها ، ما لم يمتد إلى العالم كله ..

وفى رصانة قلقة (كعادته) ، تساءل رجل المخابرات البريطانى العريق (سنكلير) ، الذى منحته الملكة لقب (سير) ؛ تقديرًا لبراعته وحنكته ، وجهده المتصل ، فى سبيل التاج :

ـ تُرى لماذا هدأ القصف الألمانى الليلة ؟!

بدا السؤال مقلقًا ، بالنسبة لرجال المخابرات البريطانية ، الذين جمعتهم مائدة الاجتماعات الليلية المعتادة ، فقال أحدهم فى حذر :

ـ ربما احتاج الطيارون الألمان إلى إجازة للراحة الليلة .

هزَّ سير (سنكلير) رأسه ، معلنًا عدم اقتناعه بالجواب ، وهو يقول فى حزم :

ـ (هتلر) لن يمنح طيَّاريه إجازة ، إلا لو أنجزوا شيئًا يرضيه ؛ فذلك الرجل لا يقتنع بأهمية الإجازات ابدًا .

تبادل الرجال نظرة قلقة ، قبل أن يسأل أحدهم فى اهتمام :

ـ لماذا هدأ القصف فى رأيك إذن يا سيِّدى ؟!

تراجع سير (سنكلير) فى مقعده ، وغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ لولا أننى أخشى أن تتهموننى بالهوس ، تجاه طبيعة عملى ؛ لقلت : إن التفسير المنطقى الوحيد لهدوء الليلة ، هو أن هناك عملية مخابراتية نازية فى الطريق .

بدت الدهشة على وجوه الرجال لحظة ، قبل أن يتراجع أحدهم ، مغمغمًا :

ـ الواقع ياسيِّدى ، إننى لست أجد رابطة واضحة ، بين ...

قبل أن يتمّ عبارته ، اندفع مسئول الاتصال داخل الحجرة فجأة ، وهو يهتف فى انفعال واضح :

ـ سير (سنكلير) .. لن يمكنك أن تصدِّق ماحدث الليلة .

التفت إليه الجميع فى حركة حادة ، واعتدل (سنكلير) فى مقعده ، فى اهتمام بالغ ، وهو يرهف سمعه جيِّدًا ، والرجل يتابع بنفس الانفعال :

ـ أحد قادة النازى ، هبط بطائرته على سواحلنا ، وطلب مقابلة المسئولين هنا .

هتف أحد الرجال فى دهشة :

ـ أحد قادة النازى ؟! أتعنى أنه جنرال ؟!

التقى حاجبا (سنكليرَ) فى شدة ، ومسئول الاتصال يجيب ، وقد تضاعف انفعاله :

ـ إنه ليس جنرالاً عاديًا .. إنه (هيس) .. (رودلف هيس) .. شخصيًا ..

وتفجَّر قوله كقنبلة ، وسط الاجتماع ..

قنبلة من الدهشة والذهول ..

بلا حدود ..

* * *

فى تلك الفترة ، من الحرب العالمية الثانية ، كان (رودلف هيس) هو الرجل الثانى فى النظام النازى ، بعد (أدولف هتلر) مباشرة ..

والواقع أن علاقة (هيس) بالفوهلر النازى تعود إلى فترة طويلة جدًا ، وبالتحديد إلى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) ، حيث خدم كلاهما فى فرقة المشاة ذاتها ، وواجها معًا هزيمة (ألمانيا) المؤسفة ، وشعرا سويًا بالخزى والعار والغضب ، واتفقت آراؤهما إلى حد كبير ، وإن انبهر (هيس) بشخصية (هتلر) ، واعتبره مثله الأعلى ، فى تلك الفترة من الزمن ..

وبعد الحرب ، أصبح (رودلف هيس) ضابطًا فى السلاح الجوى الإمبراطورى ، ثم لم يلبث أن انضمَّ إلى الحزب النازى الوليد ، فى أوائل العشرينات ، وتحمّس لمبادئه ، خاصة وأن رفيق سلاحه ومثله الأعلى (هتلر) ، قد أكّد له أن مستقبلاً زاهرًا ينتظر هذا الحزب ، مع مايحمله من اتجاهات ، تروق للشعب الألمانى كله ..

وفى عام (١٩٢٣م)، اشترك (هيس) مع (هلتر)، فى محاولة (بيرهول)؛ للإطاحة بالحكومة البافارية ..

وفشلت المحاولة ..

ومع الفشل، تم إلقاء القبض على كل المشاركين فى المؤتمر، وتم سجن (رودلف هيس) مع (أدولف هتلر)، فى قلعة (لانسبورج) ..

واقترب (هيس) من (هتلر) أكثر وأكثر، وتابع تطوّر كتابه الشهير (كفاحى)، والذى وضع أساسه، وكتب أفكاره وصفحاته، أثناء فترة اعتقاله فى (لانسبروج) ..

وانبهر (هيس) بكتاب (هتلر) ..

وانبهر أكثر وأكثر بشخصيته، وطموحاته، وأفكاره، وحماسه الشديد لتعويض هزيمة الحرب العالمية الأولى، والسعى لوضع (ألمانيا)، بجنسها الآرى، فوق كل شعوب (أوروبا) ..

بل وفوق كل شعوب العالم ..

ولم تستمر فترة الاعتقال طويلاً، إذ سرعان ما غادر الاثنان سجنهما، وعادا إلى الحزب النازى، ليحتلّ كل منهما دورًا رئيسيًا فيه، وليصبح (هيس) رئيسًا للجنة السياسية المركزية، والضابط الأعلى لمفرزة الأمن فى الحزب ..

ثم راح نجم (هتلر) يصعد، ويجذب معه (هيس) إلى أعلى، ويضاعف من انبهاره بشخصية زميله القديم، حتى لقد ذاب (هيس) تمامًا فى حالة الانبهار هذه، وأصبح التابع المخلص الأمين للفوهلر (أدولف هتلر)، وخاصة عندما أصبح عضوًا فى المجلس التشريعى الرئيسى، عام ١٩٣٣م، ثم وزيرًا فى حكومة (هتلر) فيما بعد، ونائبًا له كزعيم للحزب النازى، وكرئيس وزراء، ثم رئيسًا للحكومة فيما بعد ..

واشتهر (هيس) دومًا بانبهاره الشديد بزعيمه (هتلر)، وبتنفيذه لكل أوامره، دون معارضة أو مناقشة ..

ومع إشعال (هتلر) الحرب فى (أوروبا)، وقف خلفه (هيس) بكل قوته، وكل حماسه، و ....

وفجأة، ومع إصرار (هتلر) على مهاجمة (روسيا)، وفتح جبهة شرقية جديدة، قبل أن يستقر حال الجبهة البريطانية، اتخذ (هيس) أقوى وأغرب قرار فى حياته، وانطلق بطائرته إلى هناك.

إلى البريطانيين ..

مباشرة ..

* * *

« هل تعتقد أنه صادق فى هذا ؟! »

ألقى رئيس الوزراء البريطانى السؤال ، على مسامع سير (سنكلير) ، رجل المخابرات البريطانى الفذ ، قبل أن يتابع ، فى حيرة متوترة :

ـ إنه يؤكِّد أنه هنا ، بأوامر مباشرة من (هتلر) ، الذى يعرض علينا السلام والهدنة ، ويخبرنا أن الخطر الحقيقى ، الذى يواجهه العالم ، هو الخطر الشيوعى ، وإنه علينا أن نتآزر معًا ؛ لمواجهة السوفيت ، والقضاء على الشيوعية ، قبل أن تلتهم (أوروبا) ، والعالم كله فيما بعد .

انعقد حاجبا (سنكلير) ، وتراجع فى مقعده ، فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ الواقع إنه من العسير تصوُّر (هتلر) ، كرجل يسعى إلى السلام .

وافقه رئيس الوزراء ، وهو يقول فى انفعال :

ـ أليس كذلك ؟!

ولكن (سنكلير) تابع ، وكأنه لم يسمعه :

ـ ولكنه صادق فى هذا .

تراجع رئيس الوزراء بحركة عنيفة ، وكأنما أصابته صاعقة ، وهو يهتف ، بكل دهشة واستنكار الدنيا :

ـ صادق ؟! مستحيل !!

نهض (سنكلير) من مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ لقد أجريت تحرياتى ، فور سماعى الخبر ، وأمرت ببث التساؤل ؛ لكل رجالنا فى (برلين) ، ولأحد أهم جواسيسنا ، فى القيادة النازية ، كما ربطت هذا بعدة وقائع أخرى ، منها توقُّف القصف النازى تمامًا ، فى الليلة التى وصل فيها (هيس) بطائرته إلى سواحلنا ، ثم خرجت بالحقيقة ، التى لم وربما لن يتمّ إعلانها رسميًا أبدًا .

سأله رئيس الوزراء البريطانى ، وقد جفّ حلقه ، من فرط الانفعال :

ـ وما هذه الحقيقة ؟!

أجابه (سنكلير) فى سرعة :

ـ (برلين) لم تُعلن بعد اختفاء نائب رئيس الحزب النازى ، على الرغم من أن هذا أمر يصعب عدم الانتباه إليه ، فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

بدا الاهتمام على وجه رئيس الوزراء ، وإن لم يحاول إجابة السؤال ، فتابع (سنكلير) فى حزم :

- إنهم ينتظرون رد فعلنا أولاً ، قبل إعلان الموقف ، فلو وافقنا على عرض (هتلر) ، فسيعلن إنه قد أرسل نائبه ، فى مبادرة سلام نادرة ، وإنه سيتآزر معنا ضد الشيوعية ، أما لو رفضنا المبادرة ، فإما أن نعيد إليه نائبه ، فيموت الأمر في مهده ، أو نلقى القبض عليه ، فيتهمه عندئذ بالخيانة على الأرجح .

التقى حاجبا رئيس الوزراء ، وهو يقول فى توتر :

- هل تعتقد هذا ؟!

أشار (سنكلير) بسبَّابته ، مجيبًا بمنتهى الحزم :

- دون أدنى شك .

ارتفعت أنفاس رئيس الوزراء البريطانى ، على نحو مسموع ، وبدت أقرب إلى اللهاث ، معلنة انفعاله الشديد ، وهو غارق فى تفكير عميق للغاية ، قبل أن يلوِّح بيده ، قائلاً :

- الواقع إنه عرض مغر للغاية يا سير (سنكلير) ، ولست أخفى عنك أن معظم الوزراء يميلون إلى قبوله ؛ فهذا يعنى حقن الدماء ، وإيقاف عجلة الدمار ، و ....

قاطعه (سنكلير) ، على الرغم من مخالفة هذه القواعد اللياقة ، وهو فى حزم صارم :

- ويتم تحويلها إلى (روسيا) .

أدار رئيس الوزراء عينيه إليه فى حيرة آسفة ، قائلاً :

- لهجتك توحى بأنك ترفض العرض يا سير (سنكلير) .

شدّ (سنكلير) قامته ، وهو يسأل :

- هل تريد رأيى الشخصى ، أم رأيى كرجل مخابرات محنك ، يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

صمت رئيس الوزراء بضع لحظات ، دون أن يبعد عينيه عنه ، ثم لم يلبث أن قال :

- إننى واثق فيك ، كرجل مخابرات محنك .

التقط (سنكلير) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حزم :

- ارفض العرض إذن يا سيادة رئيس الوزراء .. ارفضه ، وألق القبض على (هيس) هذا ، وأعلن أنه جاءنا كمنشق على النظام النازى .. بهذا تضرب (هتلر) معنويًا فى مقتل .

تردَّد رئيس الوزراء ، وهو يقول فى حذر :

ـ أترى أن هذا أفضل من قبول العرض يا سير (سنكلير) .

أجاب (سنكلير) ، بمنتهى الحزم :

ـ من الحماقة قبول أى عرض ، من رجل مثل (هتلر) ، يا سيادة رئيس الوزراء ، وهذا ليس رأيًا شخصيًا ، وإنما هى تقارير جهاز المخابرات ، الذى أنتمى إليه ، فوفقًا لجواسيسنا ، وعملائنا فى قلب القيادة النازية ، لا يمكن أبدًا إقناع (هتلر) أو نظامه ، بإيقاف نزيف الدم العالمى ، أو إيقاف آلة القتل العسكرية الجبارة لديهم ، وكل ما يتوقَّعه خبراؤنا ، هو أن الفوهلر يحاول تحييد جبهتنا ؛ لضمنا إلى حربه ضد السوفيت ، بحيث يضمن الانتصار الساحق عليهم ، وبعدها سينقلب علينا ، ويستعيد حربه معنا ، حتى يتحقَّق له النصر الساحق ، على (أوروبا) كلها .

امتقع وجه رئيس الوزراء ، وهو يقول :

ـ أهذا رأيك ؟

هزَّ (سنكلير) رأسه نفيًا فى حزم مجيبًا :

ـ ليس رأيى يا سيادة رئيس الوزراء .. إنه رأى جهاز المخابرات البريطانى .

التقط رئيس الوزراء نفسًا عميقًا ، وقال فى حزم :

ـ وهو رأى يتحتَّم احترامه ..

وفى الصباح التالى أعلن البريطانيون وصول (هيس) بطائرته إلى سواحلهم ، فرارًا من النظام النازى ..

وعلى الفور ، أعلن (هتلر) أن نائبه (هيس) قد أصيب بالجنون ، ولم يعد يدرى ما يفعله ، ثم وصمه بالخيانة ..

ولم يدر العالم كله بحقيقة ما حدث ، طوال أيام الحرب العالمية الثانية ، وحتى سقوط (ألمانيا) ، واستسلام (اليابان) ..

وفى محاكمات (نورمبرج) ، عام ١٩٤٦م ، عادت قصة (هيس) إلى الظهور ، وخاصة عندما أعلن أنه إنما جاء يعرض السلام ، وأن (هتلر) ، على الرغم من انتحاره ، ما زال مثله الأعلى ..

وبسرعة ، كذَّبت وسائل الدعاية الغربية ما قاله (هيس) ، الذى تم الحكم عليه بالسجن مدى الحياة ..

وفى سجن (شبانداو) ، ظلَّ (هيس) يصر على قصته ، ويردِّد دومًا أنه إنما جاء فى مهمة سلام ، وبدأ يدعو العالم

إلى سماع روايتـه ، دون كلل أو ملل ، بعد أن أصبح هو السجين الوحيد فى سجن (شبانداو) ، الذى تقوم على حراسته قوات من أربـع دول (إنجلـترا) ، و(فرنسـا) ، و(روسيا) ، و(أمريكا) ..

وفى السابع عشـر من أغسطس ، عام ١٩٨٧م ، مات (هيس) فى سجنه فجأة ، على نحو مريب ، مازال مثار تساؤل ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

أما الحقيقة ، فقد أعلنتها الوثائق البريطانيـة عام ٢٠٠١م ، أى بعد ستين عامًا من هبوط (هيـس) علـى السواحل البريطانية ، لتضع بهذا نهاية لذلك الملف ، الذى شغل العالم طويلاً ..

ملف مبعوث السلام ..

النازى .

★ ★ ★

مذكرات رجل مخابرات ٩

مستويات اللعبة

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصورً حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٩ ـ مستويات اللعبة ..

على الرغم من أننى قد درست مئات الحالات ، قبل أن أبدأ عملى فعليًّا ، وشاهدت عشرات الأفلام ، لحالات استجواب جواسيس ، بعد سقوطهم فى قبضة أجهزة المخابرات ، إلا أنها كانت أوَّل مرة أشاهد فيها صدمة الجاسوس ، على نحو مباشر ..

فهناك ، فى حجرة الاستجواب ، وعندما واجهت الجاسوس بأنه قد أخفى معلومات حيوية عنا ، فى اعترافاته التفصيلية ، أصابه ذهول شديد ، حتى كدت أشعر نحوه بالشفقة !

لقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وجحظتا حتى كادتا تثبان من محجريهما ، وارتجفت أطرافه بشدة ، واصطكت أسنانه ، وغمر العرق البارد وجهه ، وبدأ صوته أشد شحوبًا من قسماته ، وهو يقول :

ـ إننى لم أتعمَّد هذا .

ألقيت تقرير اللجنة إليه ، وأنا أقول فى صرامة :

ـ ماذا تسمى ما فعلته إذن ؟!

بدت الحيرة واضحة فى ملامحه ، وهو يبحث باستماتة عن جواب ، قبل أن يندفع قائلاً فى مرارة :

ـ لقد نسيت .

كانت حجة سخيفة تافهة ، زادت من احتقارى للرجل وغضبى منه ، وأنا أقول فى صرامة أشد :

ـ نسيت ماذا ؟! نسيت ذكر دورتين تدريبيتين كاملتين ؟! قل لى يا رجل : أين قاموا بتدريبك ، على وسائل التجسُّس المتطوِّرة ؟! فى أيةَ دولة ؟!

بدا منهارًا ، وهو يغمغم :

ـ وهل سيصنع هذا فارقًا ؟!

أجبته بنفس الصرامة القاسية :

ـ كل معلومة يمكن أن تصنع فارقًا ، مهما بلغت ضآلتها أو دقتها .. لقد أخبرتك بهذا منذ البداية .

ثم ملت نحوه ، مستطردًا :

ـ ومن المؤكد أنهم أخبروك به أيضًا .

عادت أطرافه ترتجف ، وخفض عينيه فى انهيار تام ، وبدا صوت نحيبه واضحًا ، فلم ينبس أى منا ببنت شفة ، كما تقتضى القواعد ، واكتفينا بالتطلُّع إليه صامتين ، حتى غمغم فى انهيار :

ـ هل يمكننى أن أكتب اعترافى مرة أخرى ؟!

أجبته بمنتهى الصرامة ، وأنا أدفع الأوراق والقلم إليه :

ـ بالتأكيد .

استغرقت كتابة اعترافه التفصيلى للمرة الرابعة ما يزيد من الساعة هذه المرة ، ولكنه أضاف إليه كل التفاصيل ، التى أغفلها عامدًا فيما مضى .

أضاف إليها مرحلة تعاونه ، مع جهاز المخابرات الأجنبى ، ونشاطه السرى ، بعد أن تولَّى منصبه ، والمعلومات التى منحها لهم ، والتى طالبوه بعدها بالسفر إليهم ، فى واحدة من دول (أوروبا) ، حيث قاموا بتطوير أداءه ، عن طريق برنامج تدريبى ، عاد بعده إلى وطنه الأم ، وهو أكثر كفاءة فى مضمار التجسُّس ..

ولعام كامل تقريبًا ، واصل مشوار الخيانة ، ومنحهم

المزيد والمزيد من المعلومات ، مما جعلهم يقررون تطوير أداءه مرة أخرى ، فاستدعوه ليتلقى الدورة التدريبية ، التى أهلته للوصول إلى المستوى الثالث .. وفى عالم الجاسوسية ، لا يمكن للجاسوس أن يترقى ، من مستوى إلى آخر ، إلا لو أثبت نجاحه فى المستوى السابق ..

وأجهزة المخابرات لا تمنح أسرارها لأحد عبثًا ، فإذا ما تعاملت معه ، باعتباره جاسوسًا بسيطًا ، فهى تضعه فى المستوى الأوَّل ، وتمنحه من التدريبات والمعلومات ما يكفيه للقيام بدوره ، على هذا المستوى فحسب ..

وعندما يجتهد الجاسوس فى خيانته ، ويمنح سادته الكثير من المعلومات المفيدة ، يتمّ نقله إلى المستوى الثانى ، حيث يتلقى تدريبات أكثر ، ويتعرَّف وسائل أحدث ، ويمتلك القدرة على نقل المعلومات بالصوت والصورة أيضًا ..

ومع إثبات فائدته ، يتم نقله إلى المستوى الثالث .

وهكذا ..

ومن النادر أن تجد جاسوسًا أو عميلاً ، على دراية كافية بلعبة المستويات ، أو بمستويات اللعبة هذه ، فكل ما يدركه هو أنه يتم تدريبه كل فترة زمنية ، للقيام بأعمال أكثر ..

وعندما يدلى الجاسوس باعترافه ، يحاول دومًا إنكار تورّطه ، حتى آخر رمق ، ويسعى لتجنب كل ما يثبت رضاه وتورطه أو تطوّره ..

لذا فهناك خبراء لمراجعة هذا الاعتراف ..

خبراء يدرسون كل سطر ، وكل جملة ، وكل كلمة ..

بل وكل حرف ..

وبحرفية مدهشة ، ودراسات علمية دقيقة ، يمكنهم استخلاص المستوى التدريبى ، الذى بلغه الجاسوس ، من خلال اعترافه ، ومن خلال ما تم العثور عليه معه أو فى منزله ، لحظة إلقاء القبض عليه ..

وعبر هذا وذاك ، تمكَّن الخبراء من الجزم بأن جاسوسنا هذا قد بلغ المستوى الثالث من التدريبات ، وهذا يعنى أنه قد تلقى دورتين تدريبيتين على الأقل ..

ويعنى بالتبعية أنه قد منح الخصم الكثير ..

والكثير جدًا ..

وبعد تكرار اعترافه التفصيلى للمرة الخامسة ، انهار الجاسوس تمامًا ، وراح يبكى فى مرارة ، فى حين رحت أنا

أتطلَّع إليه فى صمت ، وعقلى يسترجع كلمات عريض المنكبين ، فى اجتماعنا الأخير ..

« فى لحظة ما ، سيكون عليك تقييم الأمر كله على نحو شخصى ، وبغض النظر عن درجة تورط الشخص ، فمهمتك هى أن تتخذ القرار .. إما أن تتركه ليلقى مصيره المحتوم ، أو تجازف بمحاولة تجنيده لحسابك .. »

من الناحية المنطقية ، كان التخلِّى عنه أقل مجازفة ، فإعلان خيانته سيعدّ انتصارًا لجهاز مخابراتنا ، وطعنة فى قلب جهاز المخابرات العدو ، ولن تكون هناك مخاطر ، أو عقبات ، أو احتمالات فشل ..

أما السعى لتجنيده كعميل مزدوج ، فكان يضع كل الاحتمالات ، على كفتين متوازنتين .. النجاح والفشل .. الأمان والخطر .. المكسب والخسارة ..

ولم يكن اتخاذ القرار هينًا أو بسيطًا ، وكان علىّ أن أدرس الموقف جيدًا ، وأراجع كل نقطة منه فى ذهنى ..

ولسبب ما ، شعر وجه القنفذ بما يدور فى أعمق أعماقى ، فتسلَّل إلى جوارى ، وهمس فى أذنى :

ـ ماذا سنفعل به ؟!

أحنقتنى أن يلقى سؤاله هذا ، فى اللحظة التى بلغت فيها حيرتى ذروتها ، فهمست بدورى فى حدة :

ـ ماذا ستفعل أنت ، لو كنت فى موضعى ؟!

هزّ كتفيه ، وهو يجيب برصانته المعهودة :

ـ هذا يتوقف على عامل مهم جدًّا .

همست ، فى شىء من العصبية :

ـ أتعنى انتماءه وولاءه ؟!

كنت أتوقَّع جوابًا إيجابيًّا حاسمًا ، إلا أننى فوجئت به يهز رأسه نفيًا وهو يهمس بتلك الرصانة ، التى أصبحت تثير حنقى :

ـ كلاًّ .

التفت إليه بدهشة مستنكرة ، فمال نحوى مرة أخرى ، هامسًا :

ـ بل على الفائدة المرجوّة من تجنيده لحسابنا .

بدا لى جوابه منطقيًا كالمعتاد ، على الرغم من مخالفته

لكل ما دار فى ذهنى طوال الوقت ، مما ضاعف من حنقى ، وأنا أتمتم :

ـ بالتأكيد .

رحت أعيد دراسة الموقف فى ذهنى ، على ضوء المعطيات الجديدة ، التى أثارها وجه القنفذ فى عقلى ، فى حين مسح الجاسوس دموعه ، وغمغم فى مرارة فائقة :

ـ لم يكن أمامى خيار آخر .

شتَّتت عبارته تفكيرى ، وجعلتنى أقول فى صرامة :

ـ كل إنسان يملك الخيار التام ، فى كل قرار يتخذه بإرادته .

قال فى مزيج من المرارة والعصبية :

ـ وماذا كنت ستفعل ، لو أنك فى موضعى ؟! ماذا كان ينبغى أن أفعل ؟!

أجبته فى صرامة أكثر :

ـ ما ينبغى أن يفعله أى مواطن شريف .. تأتى إلى مبنى المخابرات ، الذى يعرفه الجميع ، وتقص علينا كل ما حدث .

قال فى عصبية أكثر :

ـ وهل كنتم ستصدقوننى عندئذ ؟!

ملت نحوه ، قائلاً :

ـ كنا سنعلم أنك صادق ، كما علمنا الآن أنك كاذب .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وكأنما صدمته هذه الحقيقة البسيطةَ ، وظلّ يحدق فىَّ بضع لحظات ، قبل أن يعاود الانهيار ، مغمغمًا :

ـ إذن فقد خسرت كل شىء .

لم أحاول حتى إجابة عبارته ، أو التعليق عليها بحرف واحد ، قبل أن أتخذ قرارى بشأنه ، فى حين غمغم وجه القنفذ برصانته المستفزة :

ـ لقد وصلت إلى المستوى الأخير .

هتف الجاسوس ، بكل ذعر الدنيا :

ـ حقًّا ؟!

ثم انهار تمامًا ..

انهار ، وراح يبكى ، وينتحب ، ويضرب المائدة بقبضتيه فى مرارة ، وقد أيقن من أنه قد خسر اللعبة ، وفقد أسرته

وعمله ومستقبله ، وكل ما تصورَ أنه يستطيع بناءه ، عبر خيانة وطنه وشعبه ..

وهنا ، وبينما أتطلّع إلى حالة انهياره التام هذه ، قفز القرار إلى ذهنى بغتة ..

قُرار يختلف عن كل ما يمكن أن يتوقَّعه أو يفترضه وجه القنفذ ..

يختلف تمام الاختلاف ، على نحو أدهشنى أنا شخصيًا .. وبشدة ..

★ ★ ★

تابع فى الكتب القادمة

كل رجال الرئيس

(أحداث واقعية)

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا ، فى ذلك اليوم الشديد الحرارة ، من أيام يوليو ١٩٧١م ، عندما انتبه سكان المنطقة المحيطة بمبنى المخابرات العامة المصرية ، إلى أن المكان يستعد لاستقبال زائر غير عادى ، فقد تضاعفت إجراءات الأمن وبدت ملحوظة - على غير المعتاد - واحتلت ناصية الشارع المؤدى إليه سيارة كبيرة ، من سيارات الشرطة ، وحولها عدد من الضباط ورجال المرور ، وظهر عدد من الرجال فى ثياب مدنية ، عند بوابة المبنى ، وملامحهم تحمل ذلك الجمود ، الذى لا يشف قط عما تنطوى عليه نفوسهم ، فى حين تختفى عيونهم خلف مناظير داكنة ، أضفت عليهم مزيجًا من الغموض والرهبة ، يتناسبان بحق مع المكان الذى يغلفه الصمت ، والسكون طوال الوقت تقريبًا ، كما لو كان أطلالاً مهجورة ، على الرغم من كل ما تموج به أعماقه من نشاط جم ، لا يتوقف ليلاً أو نهارًا ..

ولم يكن الأمر بحاجة إلى الكثير من الاستنتاج ، لمعرفة هوية ذلك الزائر ، بل ولم يكن هناك وقت للتفكير والتخمين ، فلم يكد رجال الأمن يستقرون فى مواضعهم ، حتى أسرع رجال

المرور بإيقاف سيل السيارات ؛ لإفساح الطريق لموكب الزائر ، الذى ظهر بسرعة ، واتخذ طريقه نحو المبنى ، وعبر بوابته الرئيسية ، التى أغلقت بعدها ، وتلاشت مع إغلاقها مظاهر الأمن والحراسة - أو أنها لم تعد علانية - فى نفس الوقت الذى سمح فيه رجال المرور للسيارات بمواصلة السير ، فانطلقت تتدفق كنهر ميكانيكى ، وكل ركابها يتسمون فى ارتياح ، بعد أن تعرفوا وجه رئيس الجمهورية فى ذلك الحين ، الرئيس (أنور السادات) ، وأدركوا أنه فى طريقه لزيارة المخابرات العامة ..

وكان من الطبيعى أن يذهب رئيس الجمهورية ، كل حين وآخر ، لزيارة رجال جهاز المخابرات فى عرينهم ، على الرغم من اجتماعاته المنتظمة مع رئيس الجهاز ، والتقارير اليومية ، التى ترد إليه منه ؛ فزيارته لهم تختلف كثيرًا عن زيارتهم له ..

إنه يستطيع بينهم أن يلمس ذلك الجهد الخرافى ، الذى يبذلونه طوال الوقت ، والذى تصله نتائجه أولاً فأولاً ، كما إنه سيجد هناك كل ما يحتاج إليه ، أو يرغب فى معرفته ، دون إضاعة لحظة واحدة ، فى إحضاره من المبنى إلى القصر الجمهورى ، ومع كل الإمكانيات الحديثة المتاحة داخل المكان ، والتى يصعب نقلها لضخامة حجمها ، أو حساسية تشغيلها والتعامل معها ..

ثم إن هذه الزيارة بالذات كانت أكثر منطقية ، بعد أن هدأت الأمور ، التى اشتعلت فى منتصف مايو من العام نفسه ، وانتهت باستقرار (أنور السادات) على مقعد الرياسة ، وإجراء تغييرات جوهرية بين معاونيه ، ووزرائه ، ومستشاريه ..

ومع تحديده لمواعيد الزيارة ، طلب الرئيس عقد اجتماع خاص ، يضم كل رؤساء الأقسام فى الجهاز ، بالإضافة إلى قائد الجيش ، ومستشار الأمن القومى ، وكلاهما كان رئيسًا للمخابرات العامة ، ومدير العمليات ، الذى كان رئيسًا للمخابرات العسكرية ..

وفى هذا الاجتماع ، ترك الرئيس انطباعًا لدى رجال المخابرات بأنه واحد منهم ، يتحدث لغتهم ، ويفهم مشاعرهم وأحاسيسهم ، ويدرك طبيعة عملهم ، والتضحيات التى يبذلونها من أجله ، و ....

وحانت لحظة طرح الأفكار ، والإفصاح عما فى الصدور ..

وكعادته كلما استعد لاستجماع ما لديه ، وتسديد أهدافه بدقة أشعل الرئيس (السادات) غليونه فى تأن ، ونفث دخانه فى بطء قبل أن يدير عينيه فى الحاضرين ، ويشرح لهم السبب الحقيقى للاجتماع ..

لقد طرح عليهم رأيه ، فى ضرورة وضع خطة بالغة الدقة والسرية ؛ للتمويه على جهاز المخابرات الإسرائيلى وخداعه ، كوسيلة حتمية لدحر جيش الدفاع ، الذى أحاط نفسه بهالة أسطورية وهمية ، أوحت بأنه أقوى جيوش العالم ..

وعلى الرغم من أن الاجتماع قد استغرق ما يزيد عن الساعات الخمس ، إلا أنه اقتصر على مناقشة بعض الأفكار ، ومراجعة بعض المعلومات ، ووضع الخطوط العريضة لخطة الخداع ، ولم يتطرق قط إلى تفاصيلها ، التى ترك الرئيس مهمة وضعها للرجال ، الذين انتقاهم بدقة ، ووضع على كاهلهم المسئولية كاملة ..

وانصرف الرئيس عائدًا إلى مقر الرياسة ، وترك خلفه رجاله ، الذين واصلوا الاجتماع لثلاث ساعات أخرى ، قبل أن يصدر قرارًا بالاجتماع ، ببدء تنفيذ أضخم خطة فى تاريخ المخابرات العامة ..

خطة الخداع ، والتمهيد لحرب أكتوبر ١٩٧٣م ..

ولم يكن الأمر هينًا أو بسيطًا ، فكل خطوة ، وكل نقطة ينبغى دراستها بمنتهى الدقة والاهتمام ، والتعامل معها على

نحو بالغ الحذر ، بحيث يمكن إعداد الجيش للحرب ، وتمهيد الطريق لها ، واتخذ كل الخطوات الضرورية اللازمة دون أن يشعر جهاز المخابرات الإسرائيلى ، أو أية أجهزة أمنية أخرى للعدو بحدوث هذا ..

باختصار ، ينبغى إحضار فيل ضخم ، وتمريره تحت أنف نمر يقظ ، دون أن يشم ذلك النمر حتى رائحته ، أو ينتبه إلى وجوده ..

وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر ، من استحالة حدوث هذا ، انطلق رجال الرئيس فى عملهم بمنتهى الحماس ، كما لو أنهم على أتم ثقة بقدرتهم على إنجاز هذا العمل الرهيب ، وتحطيم حاجز المستحيل ..

وطوال الأشهر التالية ، نشط عملاء المخابرات فى (سيناء) ، و(تل أبيب) ، و(القدس) ، وفى صفوف الجيش الإسرائيلى نفسه لجمع الصور ، والوثائق ، والأقوال ، والخرائط ، وحتى الشائعات ، لتغذية الجهاز بأكبر قدر ممكن من المعلومات ، التى هى عصب العمل ، فى ذلك العالم السرى الغامض ، وعنوان التفوق فيه ..

ثم حانت لحظة اختبار طارئة ، فى شتاء عام ١٩٧٢م ،

عندما هطلت الأمطار فى غزارة غير طبيعية على (القاهرة) ، مما أدى إلى تعطل بعض المرافق الحيوية فى العاصمة ، وغرق السيارات حتى نصفها فى ميدان التحرير نفسه ، وانقطعت الاتصالات الهاتفية ، مع التيار الكهربى ، فى عدد من الأحياء المكتظة بالسكان ، مما دعا الكاتب الساخر (أحمد بهجت) إلى كتابة مقال لاذع فى جريدة الأهرام ، للسخرية من هذا الموقف ، وختمهُ بسؤال عما يمكن أن يحدث ، لو تكررت هذه الأمطار الغزيرة ، ونحن فى قلب الحرب ..

والتقطت المخابرات العامة هذا التساؤل ، طرحته فى اجتماع خاص ، ناقش الفكرة بجدية تامة ، ثم تقدم بتقرير خاص فى هذا الشأن للأجهزة المسئولة ، مع فكرة ذكية خطرت للرجال ، لاستغلال الموقف لصالح خطة الخداع ..

وفى أول حديث عام للرئيس ، بعد نشر المقال ، وبناءً على تقرير المخابرات العامة ، أشار إلى ما كتبه (أحمد بهجت) ، وإلى أن هذا التساؤل مثير للدهشة ؛ لأن الحرب ستؤدى حتمًا إلى تخريب أكثر بشاعة ، ثم انتقل بسرعة إلى نقطة أخرى ، وكأنما يلقى تعليقًا عابرًا ..

والتقط الإسرائيليون الطعم ، واتسعت ابتسامتهم فى زهو وظفر ، لأن عبارة الرئيس تعنى أنه واثق من أن أية حرب قادمة ستمتد حتمًا إلى العاصمة ، وتعنى بالتبعية أنه يخشى اندلاع هذه الحرب ، ويتردد كثيرًا فى إشعالها ..

وكان هذا بالضبط ما تريد لهم المخابرات العامة أن يفهموه ..

وهذا مجرد اختبار عابر ، أما الاختبار الحقيقى لنجاح الخطة وبراعتها ، فكان فى الفترة التى سبقت حرب أكتوبر بعدة أشهر ..

ففى تلك الفترة ، كانت الاستعدادات الأخيرة للحرب تجرى على قدم وساق ، وأخطر ما يمكن أن يحدث هو أن ينتبه الإسرائيليون إلى هذا ، أو أن يستنتجوا حتى إنه يحدث ..

وكان على رجال الرئيس أن يدرسوا كل موقف ، وكل مشكلة ، وبمنتهى الدقة ؛ فى محاولة للبحث عن وسيلة لعلاج هذا ، أو إخفاء ذاك ، أو التمويه على تحركات ما ، فى مكان ما ..

وكانت اجتماعاتهم تمتد ـ فى بعض الأحيان ـ إلى ما يزيد عن الساعات العشر المتصلة ، التى لا تتخللها سوى دقائق معدودة لتناول طعام بسيط ، أو لارتشاف أقداح الشاى والقهوة ..

ولكنهم ، وفى كل مرة ، كانوا يحطمون المستحيل ، وينتصرون على الموقف ، ويجدون حلاً لكل مشكلة ..

وبدأ هذا مع مشكلة تدريب الجنود على خطة العبور ، بعد أن جمع عملاء المخابرات ، على مدى سنوات عديدة ، معلومات تكفى لبناء عدة نماذج متفرقة ، لعدة قطاعات من خط (بارليف) ، فى الصحراء الغربية ، فلو أن أحد عملاء العدو أو جواسيسه أمكنهم الاطلاع على هذه التدريبات ، أو حتى معرفة موقعها ، فقد يفسد هذا عملية العبور كلها ، عندما يحين الوقت المناسب ..

لذا فقد أحاط رجال المخابرات مناطق التدريب بعدد من الخيام ، والأكشاك الخشبية المتهالكة ، وأمام كل هذا ألقوا ، على نحو يوحى بالإهمال ، بلافتة خشبية قديمة ، مالت على نحو مثير للشفقة ، واختفى جزء منها فى الرمال ، وهى تحمل عبارة تقول : المؤسسة المصرية العامة لاستصلاح الأراضى ، بحروف بارزة ، تجمعت عليها الأتربة ، وتساقط منها بعض النقاط ، كما لو أنها سقطت بفعل الرياح ، وتعاملت معها عوامل التعرية فى قسوة ..

وكان من الطبيعى أن يتجاهل العدو هذه المناطق ، خاصة

وأن معدات التصوير الجوى عنده قد أظهرت العبارة نصف المطمورة فى الرمال ، ورصدت تلك العربات القديمة ، التى تحمل اسم شركة مقاولات ، أنشئت خصيصاً لهذا الغرض ، وهى تحمل العمال إلى الموقع ، دون أن يدرك الخبراء الإسرائيليون ، أو يتصوروا لحظة واحدة ، أن هؤلاء العمال الزائفين هم فى الواقع جنود (مصر) البواسل ، فى سبيلهم للتدريب على اقتحام نماذج خط (بارليف) وتدميرها ..

وعندما كان من الضرورى إرسال قوافل الدبابات إلى الجبهة ، درست المخابرات الموقف ، ونصحت باتخاذ قرار بنقل ورش التصليح الرئيسية إلى الخطوط الأمامية ، ثم بدأت الدبابات تصاب بأعطال عديدة ، تستلزم ذهابها إلى ورشة الإصلاح ، فى طوابير واضحة معلنة ، على نحو خدع جواسيس العدو وعيونه ، الذين تصوروا أن كل هذا الدبابات فى طريقها إلى الورشة بالفعل ، حتى كانت لحظة الحرب ، التى انطلقت فيها الدبابات ، بعد أن استعادت نشاطها وقدرتها بغتة ، لتعبر القناة ، وتواجه دبابات العدو إلى الضفة الشرقية ، وتكبدها أكبر خسائر فى تاريخها العسكرى ..

أما معدات العبور ، الهدف الرئيسى لكل عملاء وجواسيس العدو ، فقد استغل رجال الرئيس فى أمرها تلك الفكرة التى

كونها العدو ، عن ضعف خبرتنا وكفاءتنا ، فسربت تقريراً سرياً ، يحدد كمية مبالغ فيها من المعدات ، باعتبار أن هذا هو العدد الذى حدده الخبراء المصريون ، وتم استيراد هذه الكمية بالفعل ، على نحو أثار سخرية العدو الإسرائيلى ، وتندره على هؤلاء الخبراء ، الذين لايمكنهم حتى إجراء مثل هذه الحسابات ، خاصة وأن الشحنة قد وصلت إلى ميناء (الإسكندرية) بالفعل ، وتم استلامها على نحو بالغ الإهمال ، وبإجراءات أمنية توحى بالاستهتار واللامبالاة ، وظلت ملقاة على رصيف الميناء حتى المساء ، عندما أتت سيارات الجيش لنقلها إلى منطقة صحراوية فى ضاحية (حلوان) ، وتم تكديسها على مرمى البصر من طريق ممهد ، وغطاها الجنود بشباك مهترئة ، تكشف منها أكثر مما تستر ..

ووسط كل هذا الإهمال المتعمد ، كانت الخطة الحقيقية تدار ببراعة مدهشة ، تستحق إعجاب العدو قبل الصديق ..

لقد نقلت سيارات الجيش الكمية الزائدة من المعدات فحسب ، وتم تخزينها فوق مصاطب خاصة ، جعلتها تبدو فى ضعف حجمها الأصلى ، فى حين قامت سيارات أخرى ، تحمل شعار شركة مقاولات خاصة ، بنقل الكمية التى تحتاجها عملية العبور ، أثناء تظاهرها بنقل بضائع أخرى ، تم وضعها على

رصيف الميناء ، بالقرب من معدات العبور ، واتجهت بها إلى الجبهة مباشرة ..

وحتى فى الجبهة نفسها ، كانت خطة الخداع مستمرة ..

فعلى سبيل التمويه (الساذج) ، صنع الفنيون فى الجيش المصرى عددًا كبيرًا من الهياكل الخشبية لدبابات وعربات مصفحة ، وعربات رادار ، وأخفوها داخل حفر شبيهة بتلك التى توضع فيها المعدات الحقيقية ..

وضحك الإسرائيليون حتى احمرت أعينهم ، وانتفخت صدورهم ، على هذه الخطة الساذجة ، التى انكشفت لخبرائهم بكل سهولة ..

ولكن لم تكد الحرب تندلع ، حتى تحولت ضحكاتهم إلى شهقات دهشة ، وغصات كادت تقتلع الشفاه ، عندما اتضح لهم ، بعد فوات الأوان ، أن تلك النماذج الخشبية كانت تخفى فى جوفها القوارب المطاطية ، والأجهزة العائمة ، التى برزت فجأة من باطن الأرض ، عندما حانت لحظة العبور ..

وحتى المشكلات المحتملة ، لم يمهلها رجال المخابرات من حساباتهم ، فقبل اندلاع حرب أكتوبر بثلاثة أشهر ، طرح

أحد الرجال فكرة ارتفاع استهلاك المصابيح اليدوية ، أثناء فترة الإظلام الإجبارية ، التى تصاحب فى المعتاد اندلاع الحروب ، وأكد أن السوق سيحتاج حتمًا إلى كميات منها ، قبل بدء المعركة ، ولو تم استيراد هذه الكميات على نحو رسمى ، سترصد أجهزة مخابرات العدو هذا ، وتستنتج منه أننا نستعد للحرب ، لذا فمن الضرورى البحث عن وسيلة للحصول على هذه المصابيح ، دون استيرادها بالطرق الرسمية ..

وبعد أيام قليلة من طرح المشكلة ، التقى أحد المهربين بشاب حاذق على دراية كبيرة بمسالك الصحراء وخلجان الشاطئ ، وساعده هذا الشاب على تهريب كمية من قطع غيار السيارت ، مما عقد أواصر الصداقة بينهما ، فتم الاتفاق بينهما على تهريب صفقة ضخمة من المصابيح اليدوية ، واستأجرا لهذا الغرض ثلاثة مخازن بالفعل ، واحد فى الصحراء الغربية والثانى فى بدروم فسيح فى (الإسكندرية) ، والثالث عبارة عن جراج فى (العباسية) فى (القاهرة) ..

وتم كل شىء بنجاح ، ووصلت الصفقة بالفعل ، وتعامل معها الشاب بحذر بالغ ، وعلى الرغم من هذا ، فقد أطبقت عليهما الشرطة ، أثناء نقل الشحنة ، وألقى القبض عليهما ، وتمت مصادرة المصابيح ـ طبقًا للقانون ـ وطرحت للبيع

فى المجمعات الاستهلاكية بأسعار متواضعة ، قبل اندلاع الحرب بشهر واحد ..

وغنى عن الذكر أن ذلك الشاب الحاذق لم يكن سوى أحد عملاء المخابرات المدربين ..

ومع اقتراب الحرب أكثر وأكثر ، راحت خطة الخداع تسير بخطوات أوسع ، وتلتقط أنفاسها فى حرارة وحماس ..

لقد قدر الخبراء ـ آنذاك ـ أن عملية العبور ستؤدى إلى إصابة نصف قوات الموجة الأولى ، ثم يتناقص العدد تدريجيًا مع الموجات التالية ، وهذا ما لم يحدث بالفعل ، عندما تم العبور ، إذ لم تتجاوز نسبة الخسائر ١٠٪ ، ولكن الخبراء رأوا أن هذا سيستلزم إخلاء عدد من المستشفيات المدنية ، مع قيام الحرب ، للمساعدة فى عمليات استقبال الجرحى والمصابين ..

ولأنه من المستحيل أن يتم هذا ، دون أن ينتبه العدو ، وبشدة ، إلى استعدادات قيام الحرب ، فقد هبَّ رجال المخابرات لبحث المشكلة ، وتقديم النصيحة المناسبة بشأنها ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، قامت إدارة شئون الضباط ، فى القوات المسلحة ، بتسريح ضابط طبيب من الخدمة ، ولم يكد هذا الطبيب يعود إلى الحياة المدنية ، حتى تسلم وظيفته السابقة فى وزارة الصحة ، وتم تعيينه فى مستشفى (الدمرداش) ، الذى وقع عليه الاختيار ، ليكون فى أول القائمة ..

ونظرًا لكفاءة ومهارة هذا الطبيب ، فقد كشف ، بعد تسلم العمل بفترة قصيرة ، أن ميكروب التيتانوس يلوث معظم عنابر المستشفى ، فأسرع بتقديم مذكرة فى هذا الشأن ، دارت حولها مناقشات ومحاورات ليومين كاملين ، بعدهما تم إخلاء المستشفى تمامًا من المرضى ، لتطهيره من الميكروب ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، نشرت جريدة الأهرام الخبر ، وتساءل أحد الصحفيين عما إذا كان التلوث قد وصل إلى بعض المستشفيات الأخرى أم لا ، وبناءً على ما جاء بالمقال ، صدر قرار بإجراء تفتيش على باقى المستشفيات ، ولم يكد أول أكتوبر يأتى ، حتى كان العدد المطلوب من المستشفيات قد تم إخلاءه نهائيًا ، ونشرت جريدة الأهرام تحقيقًا علنيًا حول هذا الأمر ، مع صور للأسرة الخالية ، وعمليات التطهير المستمرة ..

ومع بداية أكتوبر ١٩٧٣م ، وصلت خطة الخداع إلى ذروتها ، وارتفعت درجة حرارتها إلى الخط الأحمر ، فقد حملت الصحف إعلانًا عن رحلات عمرة رمضان ، التى يقوم بها الضباط والجنود ، من خلال القوات المسلحة ، وطلب منهم الإعلان أن يتقدموا بطلباتهم ، فى نفس الوقت الذى وجه فيه المشير (أحمد إسماعيل) الدعوة إلى وزير الدفاع الرومانى ، لزيارة (مصر) يوم الاثنين ٨ أكتوبر ، وأعلن فى بيان رسمى أنه سيكون فى استقباله شخصيًا ، لدى وصوله إلى مطار (القاهرة) ..

وفى نفس الفترة تقريبًا أعلن بصفة رسمية عن الاستعداد لاستقبال الأميرة الإنجليزية (مارجريت) ، التى أبدت رغبتها فى زيارة (مصر) ، صباح الأحد ٧ أكتوبر ، وطارت طائرتها بالفعل ، من (لندن) إلى (روما) ، وبلغ الأمر حدًّا اجتمع فيه رجال المخابرات المصرية مع قائد الجناح الجوى (بارينكوت) ، الملحق بالسفارة البريطانية ، فى الساعة الواحدة بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ؛ لرسم خط سير الطائرة ، وتأمين وصولها ، وهم يعلمون أكثر من غيرهم أن مطار (القاهرة) سيتم إغلاقه فى الثانية وخمس دقائق بالتحديد ، عند نشوب الحرب ..

أما قائد القوات الجوية ـ حينذاك ـ اللواء (محمد حسنى مبارك) ، فقد كان يعتزم زيارة الجمهورية العربية الليبية ، بصحبة عدد من ضباط السلاح الجوى المصرى ، يوم الجمعة الخامس من أكتوبر ، كما أبلغ السلطات الليبية لاسلكيًا ، إلا أن ظروفًا قهرية حالت دون قيام الرحلة فى موعدها ، فتقرر تأجيلها إلى عصر اليوم التالى السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ..

وقبل هذا الموعد بساعات معدودة ، كان الطيران المصرى يعبر قناة السويس ، ويعلن بدء معركة المصير ..

وفى نفس اللحظة ، التى كان فيها أحد الجواسيس المصريين ، فى الصفوف الأمامية للجيش الإسرائيلى ، يبلغ القوات المصرية أولاً فأولاً ، عن الأهداف التى ينبغى قصفها ، والتى صرخ فيها (موشى ديان) ، وزير الدفاع الإسرائيلى فى وجه الجنرال (شموئيل جونين) قائد جبهة (سيناء) ؛ ليوبخه على فشله فى تشغيل أنابيب النابالم ، وإشعال النيران فى مياه القناة ، دون أن يدرى أن المصريين قد أفسدوا فاعليتها بخطة مدهشة ، كان الرئيس (أنور السادات) يشعل غليونه فى مقر قيادة المعركة ، وينفث دخانه المعطر فى استمتاع ظافر ، وهو يتابع أخبار القتال ..

وفى أعماقه ، اتخذ الرئيس قراره بضرورة مكافأة الرجـال ، الذين كـان لهم الفضل ، بعد اللّـه (سبحانه وتعالى) فى تحقيق عـامل المفاجـأة ، وخـداع العـدو ، ونجـاح عمليـة العبور ..

كل رجال الرئيس ..

* * *

حرب المعرفة

(المعلومات)

٣ - جاسوس وعميل

٣ ـ جاسوس وعميل ..

ما الفارق الرئيسى ، بين الجاسوس والعميل ؟!

سؤال يطرح نفسه دومًا ، كلما قرأنا أو طالعنا عملية من عمليات الجاسوسية ، أو حتى رواية من الروايات ، التى تخترق هذا العالم المثير ..

والحقيقة أن العديدين ، ومنهم بعض أجهزة المخابرات نفسها ، ما زالوا يختلفون حول تحديد الفارق بين الجاسوس (SPY) والعميل (Agent) ، فالبعض يؤكد أنه لا يوجد فارق محدود ، وأن التسميتين صالحتان ، فى التعامل مع أى شخص فى عمليات المخابرات ، سواء أكان أحد ضباط جهاز مخابرات ما ، أو شخص تم تجنيده ؛ للقيام بعملية محدودية ، والبعض الآخر يقول : إن الأمر مرتبط بالعمل الذى يقوم به الشخص ، داخل عملية بعينها ، أو طبيعة العملية نفسها ، إذ إنه ليس من الضرورى أن تقتصر عمليات المخابرات على التجسُّس ، بل وليس من الضرورى أن يرتبط التجسُّس نفسه بأجهزة المخابرات !!

إذن ، فمن وجهة نظر المجموعة الثانية ، يكون الشخص نفسه جاسوسًا ، لو ارتبط عمله بالتجسُّس ، أو عميلاً ، لو ارتبط عمله بأمور مخابراتية أخرى ، مثل تنظيم المعلومات ، وتحليلها ، وتوصيل ميكروفيلم مثلاً ، أو ما شابهه ..

ولكن هناك فئة ثالثة ترى أن الجاسوس هو شخص ، ينتمى إلى دولة ما ، ويقوم بأعمال التجسُّس على دولة أخرى ، أما العميل ، فهو شخص ينتمى إلى دولة ، ويقوم بالتجسُّس عليها ، لحساب دولة أخرى .

وأنا بصفة شخصية ، أميل إلى هذا التعريف الأخير ، ربما لأننى اعتدت منذ صباى ، أن أسمع أن فلانًا عميل للسلطة ، وفلانًا عميل للمباحث ، وهكذا .. ربما ..

ولو صح التعريف الثالث ـ الذى أميل إليه ـ لكان كل عميل جاسوسًا ، وليس العكس ، إذا أن كليهما يمارس لعبة التجسُّس ، أحدهما لحساب دولته ، والآخر لخيانة دولته ..

وفى كل الأحوال ، فقد تحدثنا عن صعوبات زرع جاسوس ما ، فى مجتمع جديد ، للحصول بوساطته على المعلومات السرية ، التى يخفيها الخصم أو العدو ، وسنتحدث الآن عما يتعلق بتجنيد عميل ، من قبل العدو ، للحصول على المعلومات بوساطته ..

وعملية تجنيد العميل هذه ، عملية محفوفة بمخاطر شتى ، وصعوبات بالغة ، لأن فشلها قد يؤدى إلى انهيار شبكة جاسوسية كاملة ، أو يمنح الخصم فرصة القيام بهجمة مرتدة ، وتسديد هدف إلى مرمى جهاز المخابرات الآخر ، من خلال كشف العميل ، أو تطوّع هذا الأخير بإبلاغ المخابرات فى دولته ، عن محاولة تجنيده ، واستغلال هذا فى الإيقاع بجهاز المخابرات الخصم ..

لذا ، فعملية تجنيد العميل تتم ببطء ، ووفقًا لخطوات دقيقة للغاية ، ومدروسة إلى أقصى حد ، وقواعد لا يمكن تجاوزها ، مهما كانت الأسباب ..

وأهم هذه القواعد هى أن تدرك جيدًا أنك تقوم بتجنيد شخص ، ينتمى فعليًا إلى معسكر الخصم ، ومن الضرورى أن تلتقط فيه طرف خيط يقنعك بأنه قابل للتجنيد والسيطرة ..

وفى هذا المضمار ، لا بد وأن تعرف أن الشخص المتاح يمكن تجنيده بإحدى الوسائل التالية ..

المال : وهو أشهر الوسائل وأنجحها ، فى هذا المجال ، إذ أن الطمع والشراهة هم أكثر الصفات ، التى تدفع بعض الناس إلى التحالف مع الشيطان نفسه ، لو اقتضى الأمر ، فى سبيل الحصول على المزيد ، وفقًا للقاعدة التى تقول : اثنان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال ..

وما دام التحالف مع الشيطان ممكن ، من أجل المال ، فماذا يضير التحالف مع العدو ؟!!

من هذا المنطلق ، يمكن أن يقبل طالب المال فكرة التجنيد ، والعمل ضد دولته ، ولحساب عدوها ، من أجل مكافآت سخية ، وثراء يحلم به منذ زمن ..

الجنس : ويعتبر وسيلة قوية لتجنيد أى شخص ، وبالذات أولئك الذين تنهار إرادتهم ، أمام امرأة جميلة ، أو جسد بض مثير ، ولقد كانت المخابرات السوفيتية هى أول من انتبه إلى هذه الحقيقة ، مما دفعها إلى إنشاء جهاز خاص مهمته تدريب الفتيات ، منذ سن صغيرة جدًا ، على إشباع

رغبات الرجال ، وفهم متطلباتهم ، واستيعاب طبيعتهم ، ونزواتهم الطبيعية ، وحتى الشاذة ، ومنحهم ما يرضيهم تمامًا ، وبأسلوب شديد البراعة والذكاء ، بحيث يرتبط الرجال بهن ارتباطًا وثيقًا ، يجعلهم مستعدون للقتل ، فى سبيل الاحتفاظ بهن ..

وما دامت الأمور قد بلغت حد القتل ، فما مشكلة التجسُّس ؟!

أو حتى الخيانة ؟!

المبدأ : وهو أخطر دافع ؛ لتجنيد المرء ضد مصلحة وطنه ، إذ أن الشخص يكون مستعدًا للتضحية بحياته نفسها ، من أجل الخصم ، الذى ينجح فى إقناعه بأنه إنما يفعل هذا فى سبيل مبدأه ، أو عقيدته (والتى تندرج تحت الخانة نفسها) ، وتتوقف درجة نجاح جهاز المخابرات ، فى تجنيد عميل ما ، من هذا المنطلق ، على براعته فى استغلال ارتباط ذلك العميل بمبدأه ، وقدرته على إقناعه بالانتماء إلى المبدأ نفسه ، أو العقيدة نفسها ، أو دفعه إلى التطرُّف فى مبدأه ، إلى حد القتل من أجله ..

ومن أشهر حالات العمل لحساب جهاز مخابرات خصم ، من أجل المبدأ ، عملية (كيم فيلبى) ، نائب رئيس جهاز المخابرات البريطانى السابق ، الذى اقتنع بالشيوعية ، واعتنقها ، فاستغل جهاز المخابرات السوفيتى هذا ، وجنَّده للعمل لحسابه ، طوال سنوات عديدة ..

وفى حالات أخرى ، استغلت بعض أجهزة المخابرات العقائد ، لدفع البعض إلى القيام بعمليات تدمير وتخريب ، داخل مجتمعاتهم نفسها ؛ لإضعاف الاقتصاد ، وإشاعة الفوضى والبلبلة ، بحجة حماية العقيدة ، وإقامة العدل ..

الرفض : فى هذه الحالة بالتحديد ، يتم رصد الأشخاص ، الرافضين لنظم وعقائد وحكومات مجتمعاتهم ، والغاضبين مما يحيط بهم ، أو الناقمين على ما خسروه فى عهد ما ؛ وتجنيدهم ضد هذه النظم ، واستغلال غضبهم ونقمتهم ، كطاقة سلبية مدمرة ، تدفعهم لبذل قصارى جهودهم ، من أجل تدمير مجتمعاتهم ، دون أن يدركوا أن هذا يدمرهم شخصيًا ، مع مرور الوقت ..

الخطأ : إحدى الوسائل المضمونة ، لتجنيد الأفراد ، على الرغم منهم ، للعمل لحساب جهاز مخابرات خصم ، وذلك عن طريق رصد خطأ ما للشخص ، أو دفعه لارتكاب خطأ ما ، أو حماقة ما ، أو التورُّط فى علاقة غير مشروعة ، وتسجيل هذا الأمر ، وتوثيقه ، ثم إطلاعه عليه ، وتبصيره بما يمكن أن يؤدى إليه كشفه ، من تدمير لمستقبله وحياته ، وطموحاته وآماله ، مع مزج جانب الترهيب بلمحات من الترغيب ، حول الفوائد التى سيجنيها ، ماليًّا وعمليًّا ، من العمل لحساب جهاز المخابرات الخصم .. وهكذا ..

ومن الضرورى جدًّا تحديد الوسيلة المناسبة ، لتجنيد شخص ما ؛ إذ أن استخدام وسيلة غير مناسبة ، يؤدى إلى فشل العملية كلها ، وكشف اللعبة من أساسها ..

واختيار العناصر الصالحة للتجنيد يتم ، من خلال شخص محترف فى هذا المجال ، ويطلق عليه اسم (المحدِّد) (Spotter) ، ومهمته تقتصر على تحديد الشخص ، والاقتراب منه ، ومعرفته عن قرب ، ورصد نقاط ضعفه ، واتجاهاته ، وشغفه بالمال ، أو النساء ، أو رفضه لمجتمعه ، أو انتمائه

العقائدى ، وبعدها يقوم بنقل كل هذا إلى قيادته ، التى تعيد دراسة كل ما يتعلَّق بذلك الشخص ، وتقوم بعمل تحرياتها الكاملة عنه ، وتضع كل ما لديها من معلومات ، فى المرحلة التالية ، أمام خبراء نفسيين واجتماعيين ، وخبراء فى علم الجاسوسية ، وذلك لتحليل شخصيته جيدًا ، وتحديد الوسيلة المناسبة للتعامل معه ..

وفى معظم الحالات القديمة ، كان ذلك الشخص يسعى إلى إغراق الهدف فى المتع والملذات ، حتى يعتاد هذا تمامًا ، ويدمنه حتى الثمالة ، ثم يتخلَّى عنه دفعة واحدة ؛ لدراسة ردود أفعاله ، وتحديد مدى ضعفه أمام المال ..

وإذا ما ثبت إنه شخص قابل للتجنيد ، يتم إرسال محترف للقائه ، ومقابلته وجهًا لوجه ، بوسيلة يرتبها المحدِّد الأوَّل ، والذى يضمن حدوث اللقاء ..

وأثناء اللقاء ، يقوم المحترف بفرز الهدف ، وإعادة تقييمه ، فى ضوء كل ما أتيح له من معلومات ، وتقارير نفسية ومخابراتية ، فإذا ما تيقن من صلاحيته ، عن طريق المواجهة المباشرة ، فإنه يبدأ فى طرح الأمر عليه تدريجيًّا ، وهذا هو

الأسلوب المعتـاد ـ أو مباشرة ـ وهو ما حدث فى حـالات نادرة جدًا .. وفقًا لما يتراءى لـه ، بعد المواجهـة الشخصية ، التى يعتمد فيها على خبرتـه ، فى فرز وتحليل الشخصيات ..

وفى كل الأحوال ، وأيًا كانت وسيلة التجنيد فلابد وأن يوضـع فى الاعتبار أن ذلك العميل يعمل لحساب دولة ، خصم لدولة مسقط رأسه ، التى ينتمى إليها ، ويحمل جنسيتها فعليًا ..

لذا كان من الضرورى إيجـاد وسيلة ، لضمـان السيطرة الدائمة عليه ..

ولهذا حديث آخر .

★ ★ ★

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسة غير تقليدية ..

إنها أوّل سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدّم لك أسـرار عالم الأسرار ..

أوّل سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غمـوض أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشـاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!

أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ....

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء اللّه (العلى القدير)

د. نبيل فاروق

قصة العدد

عملية إكس - ١٠٧

(من قصص الجاسوسية العالمية)

١ ـ المريض ..

● انهمر الجليد ، على نحو غير مسبوق ، فى تلك الفَترة من أواخر الثمانينات ، على العاصمة السوفيتية (موسكو) ، التى تغطَّت كلها برداء أبيض هش ، فى واحد من أكثر فصول الشتاء برودة ، منذ الحرب العالمية الثانية ، والذى تجاوزت فيه مؤشرات الحرارة الثلاثين تحت الصفر ، وخلت الشوارع أو كادت من المارة ، وبالذات حول منطقة (الكريملين) ، قلعة الحكم السوفيتية الشهيرة ، التى لا تهدأ ولا تكل أبدًا ، فى أية لحظة ، من لحظات النهار أو الليل ..

فعلى الرغم من الشوارع الخالية ، المحيطة بها ، كان النشاط داخلها يبلغ ذروته المعتادة ، وبالذات فى مبانى المخابرات (كى . جى . بى) ، التى يدور العمل فيها دومًا ، فى إطار من الهدوء والصمت والسرية المطلقة ..

وعبر أحد ممرات الجناح الطبى الخاص ، فى قبو المبنى الرئيسى للمخابرات السوفيتية ، تعالى وقع قدمى أحد الرجال ، وهو يتجه نحو منطقة خاصة ، تم عزلها بإجراءات صارمة مشدَّدة ، وتوقَّف ؛ ليسأل أحد أفراد طاقم الحراسة الخاص بها :

ـ هل أجروا الفحوص الدورية فى موعدها ؟!

أومأ الحارس برأسه إيجابًا ، وهو يشدَ قامته فى احترام ، قائلاً بلهجة عسكرية صرفة :

ـ فى تمام منتصف الليل يا سيِّدى .

هزَّ رجل المخابرات رأسه ، وكأنما ارتاح للجواب ، ثم أشار بيده للحارس ، قائلاً بصرامة نمطية :

ـ افتح الباب .

تردَّد الحارس لحظة ، وهو يراجع فى ذهنه تلك الأوامر الصارمة التى تلقَّاها ، بشأن ذلك المريض بالذات ، ثم قال :

ـ سيِّدى .. أنت تعلم أن ...

قاطعه رجل المخابرات ، فى صرامة قاسية ، وهوَ يشير إلى ذلك الشعار الخاص على صدره ، والذى يشف عن كونه أحد أفراد القيادة العليا :

ـ قلت : افتح الباب .

لم يكن أمام الحارس ، والحال هكذا ، إلا أن يطيع الأوامر ،

فانزاح جانبًا ، وضغط أزرار الرتاج الإليكترونية لقاعة العزل الطبى ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا سيدى .

ثم استعاد وقفته العسكرية ، مع حركة الباب الهادئة ، وهو يضيف :

ـ فقط ينبغى أن تذكر حتمية ارتداء الزى الواقى ، والمرور فى ممر التطهير ، قبل أن ...

قاطعه رجل المخابرات ، بنفس الصرامة القاسية :

ـ أعلم هذا .

قالها ، وعبر الباب ، وتركه يُغلق خلفه ، قبل أن يتجه إلى حجرة جانبية ، داخل منطقة العزل الطبى ، ويرتدى زيًا واقيًا خاصًا ، ثم يعبر ممرًا ، تعرَّض زيه فيه إلى أشعة فوق بنفسجية خاصة ، لتطهيره من كل ما علق به ، من أتربه وميكروبات ، قبل أن يصل إلى قاعة صغيرة ، استقر فى منتصفها مريض شاحب الوجه ، شديد التحول ، انتشرت فى الأجزاء الظاهرة من جسده بثور عجيبة ، توحى ملامحه بأنها مؤلمة للغاية ، على الرغم من الطاقم الطبى الذى يحيط به ،

فى أزياء واقية مماثلة ، ومن الأسلاك والأنابيب الدقيقة ، التى تتصل بجسده ، فى مواضع مختلفة ؛ لتمدّه بالأدوية المخففة للآلام ، وتعمل على قياس كافة معدّلاته الحيوية طوال الوقت ..

وفى حزم واضح ، ودون أن يتبادل كلمة واحدة ، مع أفراد الطاقم الطبى ، اتجه رجل المخابرات إلى المريض ، والتقط من جيبه محقنًا ، وكشف عن ذراعه ، و ....

« ماذا تفعل بالضبط ؟! »

ألقى أحد أفراد الطاقم الطبى السؤال ، وهو يعترض طريق رجل المخابرات فى حزم ، إلا أن هذا الأخير أزاح يده فى صرامة ، وهو يدس إبرة المحقن ، فى ذراع المريض ، مجيبًا :

ـ القيادة تريد عينة من دمه .

قال الرجل فى عصبية ، وهو يعاود محاولة منعه :

ـ ولكنهم حصلوا عليها بالفعل ، منذ نصف الساعة تقريبًا .

فى هذه المرة ، قبض رجل المخابرات على أصابعه ، فى قوة مؤلمة ، وأزاحها بعيدًا فى قسوة ، وهو يسحب بضع سنتيمترات ، من دماء المريض ، قائلاً :

ـ ويريدون عينة إضافية .

قال الرجل فى صرامة :

ـ كان ينبغى أن يطلبوها منا .

انتزع رجل المخابرات إبرة المحقن ، من ذراع المريض ، ثم أخرج من جيبه قنينة صغيرة ، ذات غطاء مطاطى محكم ، تحوى سائلاً شفافًا ، ودفع إبرة المحقن فى غطائها ، لينقل إليها عينة دم المريض ، قائلاً بمنتهى الصرامة :

ـ لو أرادوا لفعلوا .

نطقها ، ثم ألقى المحقن الفارغ بعيدًا فى لامبالاة ، واتجه نحو المخرج ، فى سرعة كبيرة نسبيًا ، وهو يلتقط من جيبه علبة معدنية خاصة ، وضع داخلها تلك القنينة ، التى تحوى عينة دم المريض ؛ ليضمن عدم تأثرها بالأشعة فوق البنفسجية ، فى ممر التطهير ، فى حين توقف رجل الطاقم الطبى بضع لحظات مبهوتًا ، قبل أن ينتفض فى عنف ، كمن يستيقظ من حلم بشع ، ويقول لنفسه فى عصبية :

ـ الإجراءات .. لابد وأن نتبع الإجراءات ، وفقًا للأوامر المشدَّدة .

والتقط سماعة الهاتف الداخلى ، وطلب رقمًا خاصًا ..

رقم إدارة أمن المبنى ..

وفى غضب لا مثيل له ، تلقَّى الكولونيل (فريدريك ماينهوف) ، مسئول الأمن الداخلى الخبر ، فوثب من مقعده ، صائحًا :

ـ وكيف سمحتم له بهذا ؟! المفترض ألا يقترب من ذلك المريض إلا الذين يحملون تصريحًا بهذا فحسب !! ألا تدركون مدى حساسية وخطورة الموقف ؟!

قالها ، دون أن ينتظر ردًا ، وأنهى المحادثة فى عنف ، قبل أن يلتقط هاتفًا آخر ، ويضغط أحد أزراره ، ثم يهتف عبره ، فى صرامة آمرة قاسية :

ـ هنا الكولونيل (ماينهوف) .. أطلقوا صفارة الإنذار الكبرى .. أغلقوا كل الأبواب .. لا أحد يدخل المكان ، أو يغادره ، إلا بعد إنهاء حالة الطوارئ القصوى ، وبأوامر منى شخصيًا هل تفهم ؟!

ارتبك مسئول الحراسة ، وهو يجيبه :

ـ بالطبع أيها الرفيق الكولونيل .. أفهم هذا تمامًا .. ولكن ..

قاطعه (ماينهوف) فى حدة :

ـ ولكن ماذا ؟!

ارتبك مسئول الحراسة أكثر ، وهو يجيب :

ـ لقد .. لقد غادر الماجور (رابينوفيتش) المكان بالفعل ، فى سيارته الخاصة ، منذ دقيقة واحدة .

احتقن وجه (مايتهوف) بمنتهى الشدة ، وهو يصرخ :

ـ غادر ؟!

أجابه مسئول الحراسة ، وهو يكاد ينهار ، من فرط الرعب :

ـ سيّدى الكولونيل .. لم تكن هناك أية أوامر بمنع المغادرة ، و ...

ولم ينتظر (مايتهوف) ، الألمانى الشرقى ، الذى نجح ، عبر سنوات من القسوة والحدة والصرامة ، وقطع الرقاب ، دون رحمة أو شفقة ، فى احتلال ذلك المنصب شديد الحساسية ، فى قلب المخابرات السوفيتية ، حتى ينهى مسئول الحراسة عبارته ، وإنما أنهى المحادثة بمنتهى العنف ، وضغط اثنين من أزرار الاتصال أمامه بمنتهى الحدة ، وهو يقول فى انفعال غاضب ثائر :

ـ أريد عقد اجتماع طارئ فورًا ، خلال خمس دقائق فحسب ، وأريد حضور الماجور (فيدروف) .. (جريجورى فيدروف) ، وفى الوقت ذاته ، أطلق كل رجالنا ، فى كل مكان فى الاتحاد السوفيتى كله ، خلف الماجور (أندريه رابينوفيتش) ..

اطلب منهم اعتقاله فور رؤيته ، أو القضاء عليه ، لو تعذّر الإيقاع به حيًا .. المهم ألا يغادر حدود الاتحاد السوفيتى ، مهما كان الثمن .. هل تفهم ؟! مهما كان الثمن .

وعندما أنهى المحادثة هذه المرة ، كانت كل ذرة من كيانه ترتجف انفعالاً وتوترًا ..

هذا لأن ما حدث ، خلال الدقائق القليلة الماضية ، كان خطيرًا للغاية .. فعينة الدم ، التى حصل عليها (رابينوفيتش) ، وغادر بها قلعة (الكريملين) ..

كانت تحوى الفيروس النشط (إكس ـ ١٠٧) ..

أخطر الأسلحة البيولوجية ، التى عرفها القرن العشرين .. على الإطلاق .

* * *

٢ ـ تحت المجهر ..

● دب نشاط يفوق المألوف ، فى مبنى المخابرات المركزية الأمريكية ، فى (لانجلى) بولاية (فيرجينيا) ، واجمع فريق محدود من الرجال ، فى قاعة الاجتماعات المؤمَّنة ، الخاصة بالأمور بالغة الأهمية والسرية والخطورة ، ورأس الاجتماع رئيس قسم الشئون السوفيتية شخصيًا ، مما يشف عن حساسية الموقف ، وبدأ حديثه ، قائلاً :

ـ أيها السادة .. لقد نجحنا أخيرًا فى الحصول على عينة من (إكس ـ ١٧٠) .

تفجَّر الخبر على النحو المطلوب ، فى كل الوجوه ، فاتسعت العيون ، وتهللت الأسارير ، وبدت لهفة فرحة على الوجوه ، ولكن رئيس القسم تابع ، فى توتر صارم :

ـ ولكنها لم تصل إلينا بعد .

تجمَّدت الانفعالات على الوجوه ، وتطلَّع الكل إلى الرئيس فى تساؤل قلق متوتر ، جعله يستطرد :

ـ عميلنا ، الذى نطلق عليه فى ملفاتنا اسم (جوجول) ،

قام بخطوة شديدة الجرأة ، بعد أن تبيَّن استحالة الوصول إلى العينة بأية وسيلة أخرى ، وجازف بأمنه الشخصى ، واقتحم المعزل الطبى الخاص ، فى قلب المخابرات السوفيتية ، وحصل على العينة .

قال أحد الرجال ، بأنفاس مبهورة :

ـ ولكن هذا سيطلق الجميع خلفه .

أومأ رئيسهم برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ لقد انطلقوا بالفعل ..

وصمت لحظة ، ثم استطرد فى توتر :

ـ السوفيت أطلقوا صفارة الإنذار الكبرى ، وأعلنوا حالة الطوارئ القصوى ، واتخذوا كل الإجراءات اللازمة ؛ لمنع (جوجول) من عبور حدودهم ، أو حتى من الظهور فى أى مكان علنى ، ولو لحظة واحدة .. رجالهم فى كل الشوارع والطرقات ، وعند نقاط الحدود ، وفى الجبال ، والموانى ، والمطارات ، ويرصدون حركة السيارات ، والمارة ، وحتى العيادات ، والمستشفيات ، وملاجئ العجزة والمتسولين .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ باختصار .. لم يتركوا ثغرة واحدة ، يمكن أن تنفذ منها بعوضة واحدة ، دون علم المخابرات السوفيتية .

غمغم أحد الرجال فى توتر :

هذا أمر طبيعى ، فكلهم يعلمون أن (إكس ـ ١٠٧) هو أخطر سلاح بيولوجى عرفه التاريخ ، وامتلاكهم له ، يجعلهم قادرين على تهديدنا ، على نحو لم نعرفه من قبل ، أما لو أمكننا الحصول على عينة منه ، فهذا يمنحنا القدرة على دراسته ، وتنميته فى وسط مناسب ، وصنع مصل واق منه أيضًا ..

أومأ رئيسه برأسه موافقًا ، وقال فى حزم :

ـ لهذا لن يسمحوا بوقوعه فى قبضتنا أبدًا .

ثم مال إلى الأمام ، ودق سطح مكتبه بقبضته ، مضيفًا فى حزم أكثر :

ـ ولهذا أيضًا لا بد وأن نحصل على العينة ، التى يملكها عميلنا (جوجول) الآن .. وبأى ثمن .

تراجع (سام داريل) ، أحد أكثر رجال المخابرات الأمريكية خبرة ، فى مقعده ، وهو يتساءل :

ـ وأين يختبئ عميلنا (جوجول) ، مع عينة (إكس ـ ١٠٧) الآن ؟!

انعقد حاجبا رئيسه ، وهو يجيب :

ـ فى منطقة آمنة للغاية ، لا يمكنهم كشفها ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى توتر بالغ :

ـ بسهولة .

أشار (داريل) بسبابته ، قائلاً :

ـ هذا يعنى أنهم قادرون على كشفها ، فى مرحلة ما .

مطَّ رئيسه شفتيه ، وقال :

ـ إنها مسألة وقت .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ ولهذا يجب أن نتحرك بمنتهى السرعة .

سأله أحد الرجال فى اهتمام قلق :

ـ أهناك خطة محدودة يا سيدى ؟!

أومأ رئيسه برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ هناك خطة طوارئ ، كانت معدّة سلفًا ؛ لكى يتم تنفيذها ، فى ظروف كهذه .. خطة تعتمد على التحرك السريع ، بأقل عدد من الأفراد ، بحيث لا نثير انتباه وتوتر المخابرات السوفيتية ، أو أجهزة الأمن الأخرى هناك ..

سأله (داريل) فى اهتمام :

ـ وما المقصود هنا بعبارة (أقل عدد من الأفراد) ؟ ما العدد المقترح فى الخطة بالضبط ؟!

انعقد حاجبا رئيسه فى شدة ، وهو يلوذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ رجل واحد ..

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

ـ أنت .

والتقى حاجبا (داريل) ، ولكنه لم ينطق بحرف .. حرف واحد ..

★ ★ ★

« الأمريكيون سيرسلون رجالهم حتمًا .. »

نطق (فريدريك ماينهوف) العبارة فى غضب صارم ، وهو يدور فى المكان ، عاقدًا كفيه خلف ظهره ، وانعقد حاجباه على نحو انقلبت معه سحنته ، مع متابعة العصبية :

ـ فعلى عكسنا ، هم يعرفون موقع ذلك الخائن ، الذى لجأ إلى مكمن آمن خاص على الأرجح ، ولأننا نحاصر (موسكو) كلها ، ولا نترك له ثغرة واحدة للفرار ، فهو مضطر للكمون فى ذلك المخبأ ، مع عينة (إكس ـ ١٠٧) ، حتى يأتى من يلتقطها منه .

توقّف عند هذه النقطة ، وبدا وكأنه يعتصر ذهنه وأفكاره ، قبل أن يواصل فى غضب أكثر :

ـ ولضمان عدم تعرُّضنا لهم ، سيرسل الأمريكيون أحد دبلوماسييهم على الأرجح ، متمتعًا بحصانة خاصة ، لا تجيز لنظم الأمن العادية إيقافه أو احتجازه ؛ حتى يمكنه الخروج بالعينة ، لذا لابد وأن يحمل رجالنا إجازات من وزارة الخارجية ، باستيقاف الدبلوماسيين ، وتفتيشهم ، إذا ما اقتضت الأمور هذا .

أومأ الماجور (جريجورى فيدروف) برأسه فى هدوء شديد ، وهو يقول :

ـ هذا سيخلق أزمات دبلوماسية عديدة .

هزّ (ماينهوف) رأسه فى شدة ، مجيبًا بمنتهى الصرامة :

ـ حتى لو أدّى إلى اشتعال حرب طاحنة .. لايمكن أن نسمح بفقدان (إكس ـ ١٠٧) قط .. إنه نقطة تفوّقنا الأولى ، بعد أن بلغ سباق التسلح النووى حدًا ؛ يمنع كل الدول من استخدامه بفاعلية .

تراجع الماجور (فيدروف) فى مقعده ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أن (إكس ـ ١٠٧) أصبح عنوان الفوز فى سباق الشرق والغرب .

أشار إليه (ماينهوف) بسبّابته ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ بالضبط .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع رنين هاتفه الخاص ، فالتقطه بحركة سريعة ، ووضعه على أذنه ، وهو يقول فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

انعقد حاجباه بمنتهى الشدة ، وهو يستمع إلى محدثّه ، فى انفعال شديد ، جعل (فيدروف) يعتدل بنظرة متسائلة ، استمرّت

حتى أنهى (ماينهوف) محادثته ، وأعاد سمّاعة هاتفه إلى موضعها ، قائلاً بكل انفعال الدنيا :

ـ لقد وصل الأمريكى .

وتألّقت عينا (فيدروف) فى شدة ، و ....

وكانت البداية .

* * *

٣ ـ الأمـريكى ..

● على الرغم من إدراكه الشديد لدقة وصعوبة وخطورة مهمته ، بدا (سام داريل) شديد الهدوء والتماسك والثقـة ، وهو يغادر مطار (موسكو) ، ويتجه مباشرة نحو سيارة البعثة الدبلوماسـية الأمريكيـة ، التـى تنتظـره خارجـه ، ويبتسم لسائقها ، قائلاً :

ـ صباح الخير يا (بيل) ... كيف يمكنك احتمـال هذا الطقس الرهيب هنا ..

ابتسم السائق ، وهو يلتقط حقيبتـه الوحيدة ، ويفتـح لـه باب السيارة الخلفى ، قائلاً :

ـ بعد عامين من العمل المتواصل هنا ، سيمكنـك احتمـال أى شىء .

دلـف (داريـل) إلـى السيارة ، وهـو يغمغـم ، بنفـس الابتسامة الهادئة :

ـ بالتأكيد .

انطلق السائق بالسيارة ، عبر شوارع (موسكو) الواسـعة ، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع (داريل) لبعض الوقت ، فى

حين بدا هذا الأخير أشبه بالنـائم ، وهو مسترخ تمامًا فـى المقعد الخلفى ، ومسبل الجفنين ، و ...

« إنهم يتبعوننا .. »

نطق السائق بالكلمـة فـى هـدوء ، شـأن مـن ينقل خبرًا عاديًا ، فمط (داريل) شفتيه ، وغمغم دون أن يفتح عينيه :

ـ من الطبيعى أن يفعلوا .

راقب السائق مرآة السيارة الجانبية ، وهو يواصل الانطلاق ، فى شوارع (موسكو) ، قبل أن يقول مرة أخرى :

ـ كنتم تتوقعون هذا .. أليس كذلك ؟!

أجابه (داريل) بنفس الهدوء :

ـ جهاز مخابراتهم ليس ساذجًا أو بسيطًا .

تساءل السائق فى قلق :

ـ ومـاذا لو فقـدوا أعصابهم ، وأقدمـوا على اعتقالنـا ؟! كلانا يعلم ما يفعلون بالمعتقلين هنا ، خاصـة وأننا بالنسبة لهم اثنين من الرأسماليين العفنين .

ابتسم (داريل) ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لن يفعلوا .

هزَّ السائق رأسه ، وألقى نظرة أخرى ، عبر مرآة السيارة الجانبية ، على السيارة السوداء القوية التى تتبعهما ، وهـو يقول :

ـ لو أنك تتصوَّر أن كوننا نتمتع بحصانة دبلوماسية دولية قد ..

قاطعه (داريل) فى حزم :

ـ هذا لن يردعهم ، لو قرروا إلقاء القبض علينا .. ولكنهم لن يفعلوا .

واعتدل فى حزم أكثر ، وهو يضيف :

ـ ليس قبل أن نوصلهم إلى هدفهم .

انعقد حاجبا السائق مع العبارة ، التى جعلته يلوذ بالصمت بضع لحظات ، ثم يتمتم :

ـ هذا صحيح .

تألَّقت عينا (داريل) مع الكلمة ، وكأنما يستعيد كل نشاطه وحيويته ، بعد رحلة السفر الطويلة ، وسأل السائق فى حماس :

ـ بعد كل هذه الفترة فى (موسكو) .. هل تحفظ شوارعها جيدًا .

أدرك السائق ما يعنيه (داريل) ، فقال فى حماس مماثل :

ـ بالتأكيد .

اتسعت ابتسامة (داريل) ، وتألَّقت عيناه أكثر وأكثر ، وهو يقول :

ـ ماذا تنتظر إذن ؟!

هتف السائق ، وهو يضغط دوَّاسة الوقود ، ويدير عجلة القيادة :

ـ لا شىء .

انحرفت السيارة بحركة مباغتة ، إثر مبادرته المزدوجة ، ووثبت نحو شارع جانبى ، وانطلقت عبره بسرعة كبيرة ، فصاح قائد سيارة المخابرات السوفيتية التى تتبعها :

ـ يا للسخافة ! إنهما يعلمان .

قالها ، وزاد من سرعة سيارته بدوره ، وهو ينحرف خلف السيارة الأمريكية ، فى ذلك الشارع الجانبى ، فى حين راح زميله

يخاطب القيادة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، لمعرفة ما ينبغى فعله ، فى هذه الحالة الاستثنائية غير المتوقَّعة ..

وفى مقر القيادة ، استشاط (ماينهوف) غضبًا ، وضرب سطح مكتبه بقبضته فى ثورة ، صائحًا :

ـ ذلك الأمريكى اللعين ، كشف ملاحقتنا له .

التقى حاجبا (فيدروف) ، وهو ينهض من مقعده ، قائلاً :

ـ ليس بالضرورة .. ولكنه دفعنا إلى كشفها بالتأكيد .

احتقن وجه (ماينهوف) بشدة ، وهو يقول :

ـ هل .. هل تعنى أنه قد انطلق بسيارته ، بتلك المناورة المباغتة ، ليدفع من يتبعه إلى كشف نفسه .

تنهَّد (فيدروف) دون أن ينبس ببنت شفة ، فاحتقن وجه (ماينهوف) أكثر وأكثر ، وهو يهتف فى سخط :

ـ يا للثعلب الأمريكى .

ثم التقط سمَّاعة هاتفه ، قائلاً فى حنق :

ـ فليكن إذن .. سنلعب بأوراق مكشوفة ، ولكننا لن نسمح للأمريكيين بـ ...

أمسك (فيدروف) معصمه بحركة مباغتة ، وهو يقول فى حزم :

ـ مهلاً أيها الرفيق (ماينهوف) .

استدار إليه (ماينهوف) ، بنظرة غاضبة مستنكرة ، ولكن (فيدروف) تابع بنفس الحزم :

ـ هل تريد أن تربح هذه المعركة ، وأن تستعيد (إكس ـ ١٠٧) ؟!

هتف (ماينهوف) فى حدة :

ـ أى سؤال هذا ؟!

انعقد حاجبا (فيدروف) بمنتهى الشدة ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ اترك لى قيادة هذه العملية إذن .

واحتقن وجه (ماينهوف) أكثر وأكثر ..

ولكنه لم يعترض على اقتراح (فيدروف) ..

أبدًا ..

* * *

حك رجل المخابرات السوفيتى المنشق (أندرية رابينوفيتش) ، المعروف لدى المخابرات الأمريكية باسم (جوجول) ، ذقنه النامية فى توتر عصبى ، وهو يغمغم فى سخط :

ـ الأمريكيون لم يصلوا بعد .

مطَّ الشيخ الجالس إلى جواره شفتيه ، وداعب لحيته البيضاء الكثة فى شىء من التوتر ، مغمغمًا :

ـ امنحهم ما يكفى من الوقت يا ولدى .

قال (رابينوفيتش) فى عصبية :

ـ كم من الوقت ؟! إنه اليوم السادس الآن ، وحملات البحث هنا لم تتوقف ، ولن تتوقف أبدًا .. أنا واحد منهم ، وأعلم مثابرتهم ، فى مثل هذه الأمور .. إنهم سيقلبون كل شبر فى (موسكو) رأسًا على عقب ، حتى يصلوا إلىَّ .. ومهما كان الثمن .. الأمل الوحيد هو أن يصل الأمريكيون قبلهم .

هزَّ الشيخ رأسه ، قائلاً :

ـ لا فارق يا ولدى .. لا فارق ..

استدار إليه (رابينوفيتش) فى حدة ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى بأنه لا فارق ؟!

هزَّ الشيخ رأسه ، مرة أخرى فى وقار ، وهو يجيب :

ـ هل تتصوَّر أن وصول الأمريكيين سينهى مشكلتك ، أو يمنحك فرصة الخروج من مأزقك ؟! كلاَّ يا ولدى .. كل ما سيفعله وصول الأمريكيين ، هو أنه سيمنحهم نقطة تفوّق ، و ....

قبل أن يتم عبارته ، التى يستمع إليها (رابينوفيتش) ، بمنتهى التوتر والاهتمام ، بلغت مسامعهما جلبة شديدة ، أتت من فوق رأسيهما مباشرة ، فرفع الشيخ رأسه إلى أعلى ، واضطرب صوته بشدة ، وهو يقول :

ـ لقد .. لقد وصلوا ..

وهوى قلب (رابينوفيتش) بين قدميه .. بمنتهى العنف .

★ ★ ★

٤ـ الحصــــار..

● بناءً على أوامر الماجور (فيدروف)، قائد العملية الجديد، أطلقت سيارة المطاردة السوفيتية سارينتها الرسمية، وقائدها يهتف بسيارة البعثة الأمريكية، التى تحمل أرقامًا دبلوماسية واضحة، عبر مكبر صوتى قوى :

ـ توقَّف فورًا، وإلا فسنضطر لإيقافك بالقوة .

ولم يحاول سائق السيارة الأمريكية تحدّى الأوامر لحظة واحدة، وإنما ضغط فرامل سيارته، ليقف إلى جانب الطريق الجانبى، وظلَّت يده ممسكة بعجلة القيادة، حتى بعد أن توقَّفت السيارة السوفيتية أمامه، وهبط منها رجل أمن قوى البنية، صارم الملامح، اتجه نحوه مباشرة، وهو يقول بلغة أمريكية ركيكة نوعًا :

ـ لقد تجاوزت حدود السرعة، المسموح بها فى العاصمة، وانحرفت بالسيارة، دون أن تمهِّد لهذا بإشارة ضوئية جانبية، مما عرض حياة المارة وركاب السيارات الأخرى للخطر .

قال السائق فى هدوء :

ـ هذه سيارة دبلوماسية، والوقت لم يكن .

قاطعه رجل الأمن السوفيتى فى صرامة :

ـ هذا لا يمنحك أدنى حق، فى تعريض المواطنين السوفيت للخطر، أو ...

بتر رجل الأمن عبارته بغتة، وانعقد حاجباه فى شدة، وهو يحدِّق فى المقعد الخلفى للسيارة، قبل أن يسأل فى شراسة :

ـ أين ذهب راكبك ؟!

هزَّ السائق كتفيه فى هدوء، متسائلاً :

ـ أى راكب ؟!

صاح به رجل الأمن السوفيتى، فى شراسة أكثر :

ـ كان هناك راكب، فى المقعد الخلفى، عندما انحرفت إلى هنا .

هزَّ السائق رأسه هذه المرة، وابتسم ابتسامة خبيثة، وهو يقول :

ـ لست أذكر شيئًا من هذا على الإطلاق .

انعقد حاجبا رجل الأمن السوفيتى، فى غضب شديد، والتقط

جهاز الاتصال اللاسلكى من جيبه ، وهو يشير إلى زميلـه ، قائلاً فى صرامة :

- تول أمره أيها الرفيق .

استل رفيقه مسدسه ، واتجـه نحو السيارة فى سـرعة ، وصوّب فوهته إلى رأس السائق ، فى حين انتحى الأوّل جانبًا ، وأجرى اتصاله اللاسلكى ، قائلاً :

- السيارة خالية أيها الرفيق (فيـدروف) .. بها السـائق وحده ، أما الأمريكى الآخر ، فليس له أدنى أثر .

ظلّ (فيدروف) هادئًا تمامًا ، وهو يستمع إلى رجل الأمـن ، ثم أمسك ذقنه بسبّابته وإبهامه ، وبدا مستغرقًا فى تفكير عميق ، قبل أن يقول فى حزم صارم بارد :

- هل التقطوا له مجموعة كافية من الصور ، عند وصولـه إلى المطار ؟!

أجابه رجل الأمن ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

- بالتأكيد أيها الرفيق .

اعتدل (فيدروف) ، وقال :

- اطبع ألف نسخة منهـا إذن ، وقم بتوزيعها على كـل رجل أمن فى العاصمة ... أريد معرفة موقع ذلك الأمريكى ، قبل مرور ساعة واحدة .

سأله رجل الأمن فى اهتمام :

- هل نقوم باعتقاله ، فور تعرُّفه ؟!

أجابه (فيدروف) فى سرعة :

- كلاً .. اكتفوا بمراقبته وتتبُّعه ، وأبلغونى بأمره ، فـور العثور عليه .. لا أريده حتى أن يشعر بهذا .

سأله رجل الأمن :

- وماذا عن السائق ؟!

أجاب (فيدروف) فى بطء :

- اتبع الإجراءات المعتادة ، فى مثل هذه الأمور .. حـرر مخالفة سير ، واسمح له بالانصراف ، وأبلغ بعثته الدبلوماسية ، عبر وزارة الخارجية ..

أنهى الاتصال ، وهو يفكرُ فى عمق ، جعـل (مـاينهوف) يسأله فى توتر :

- ما الذى يقلقك هكذا ؟!

أشار (فيدروف) بيده ، مجيبًا :

ـ الأمريكيون يتحركون أسرع مما ينبغى ..

هزّ (ماينهوف) رأسه ، قائلاً :

ـ وماذا فى هذا ؟! كلنا نعلم أن الوقت عامل حاسم ، فى صراع كهذا !

هزّ (فيدروف) رأسه ، قائلاً :

ـ هذا صحيح ، ولكن هناك قواعد .

هتف (ماينهوف) فى عصبية :

ـ أشهر العمليات الناجحة فى عالمنا ، هى التى كسرت القواعد التقليدية .

أشار (فيدروف) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ القواعد الثانوية ، وليس القواعد الأساسية يا رجل .

هزّ (ماينهوف) رأسه مرة أخرى ، وقال :

ـ ربما لأن ...

قاطعه (فيدروف) بإشارة صارمة من يده ، وكأنما لا يريد أن يقطع تسلسل حبل أفكاره ، وهو يقول ، وكأنما يحدّث نفسه :

ـ الأمريكيون لديهم خطة .. خطة غير تقليدية .. على الإطلاق ..

قالها ، وهو يعتصر عقله أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وفى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته الأخيرة ، كان رجال المخابرات السوفيتية يقتحمون تلك الحانة الصغيرة ، فى أطراف (موسكو) ، وقائدهم يقول لرجاله فى صرامة :

ـ فتشوا كل شبر هنا .. اقلبوا المكان رأساً على عقب ، لو اقتضى الأمر ، وتأكَّدوا من أن الصيد ليس هنا .

حبس (رابينوفيتش) أنفاسه ، فى القبو السرى للحانة ، وراح قلبه يخفق بمنتهى العنف ، مع وقع الأقدام العسكرية الثقيلة فوق رأسه ، فى حين أغلق الشيخ عينيه فى قوة ، وراح يتمتم بكلمات خافتة غير مفهومة ، حتى همس به (رابينوفيتش) فى عصبية :

ـ كفى .. إنك تثير أعصابى .

تنهَّد الشيخ ، وهمس فى هدوء :

ـ لا فارق يا ولدى .. لا فارق .

خفق قلب (رابينوفيتش) أكثر وأكثر ، وبدت له الثوانى أشبه بالدهور ، قبل أن يهمس فى عصبية أكثر :

ـ هل .. هل تعتقد أنهم سيكشفون المدخل السرى ؟!

أشار الشيخ بيده ، هامسًا :

ـ كل شىء محتمل يا ولدى .. كل شىء ..

شعر (رابينوفيتش) بغضب هادر ، يتصاعد فى أعماقه ، ممتزجًا بقدر هائل من الثورة والخوف ، وتمنى لحظتها لو ينقض على ذلك الشيخ ، ويعتصر عنقه بقبضته حتى الموت ، إلا أنه لم يجرؤ على مغادرة مكانه ، خشية أن تشف حركته عن مكمنه ، مع الحصار الرهيب ، الذى طوّق به رجال المخابرات السوفيتية المكان ..

كان يعلم أن مدخل القبو السرى مصنوع بحرفية عالية للغاية ، بحيث يصعب كشف أمره ، إلا أن كلمات الشيخ ظلّت تدوى فى أذنيه ..

كل شىء محتمل ..

كل شىء ..

ولقد استغرق ذلك الحصار والتفتيش قرابة ساعة كاملة ، بدت لرجل المخابرات الحبيس أشبه بقرن من الزمان ، قبل أن يتعالى وقع الأقدام العسكرية الثقيلة ، وهى تبتعد ، وتبتعد ..

وبعدها ، ساد هدوء تام ..

هدوء بدا أشبه بهدوء القبر ، حتى إن رجل المخابرات والشيخ ظلاّ محبوسى الأنفس لخمس دقائق كاملة ، قبل أن يهتف الأوّل فى سخط :

ـ أنت على حق يا رجل .. لا فارق بين السوفيت والأمريكيين .

غمغم الشيخ :

ـ بالضبط يا ولدى .. بالضبط .

انعقد حاجبا (رابينوفيتش) فى شدة ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، لابد وأن تدار اللعبة بشروط جديدة .. شروط حاسمة .

وتطلّع إليه الشيخ بمنتهى القلق ؛ فقد نطق العبارة بمزيج من الغضب والوحشية ..

منتهى الوحشية .

* * *

٥ـ منـــاورة ..

● منـذ اللحظة التى وثب فيها رجل المخابرات الأمريكى ، من سيارة البعثة الدبلوماسية ، فى بداية الطريق الجانبى ، بـدأ فى تنفيذ مهمته على الفور ..

لقد قفز من السيارة فى مرونـة ، وترك جسده يتدحـرج حتى جانبى الطريق ، وأخفاه معطفه الأبيض وسط الجليد المتراكم هناك ، إلى أن تجاوزته سيارة الأمـن السوفيتية ، وبدأت فى إطلاق سارينتها الرسمية ..

عندئذ ، نهض من مكانه ، وانتزع معطفـه ، على الرغم من البرودة الشديدة ، ثم قلبه على وجهه الأزرق الآخر ، وعاد يرتديه ، قبل أن ينزع الشارب المستعار عن وجهه ، ويخرج من جيب معطفه منظارًا طبيًا ، وغطـاء للرأس من الفراء السميك ، ارتداها ، ودسّ كفيه فى جيبى معطفه ، وغادر المكان فى هدوء ، متجهًا نحو الهدف ..

وفى ذهنه ، وبينما يسير هادئًا ، فى شوارع (موسكو) ، راح يسترجع خريطة الهدف ..

حانة صغيرة ، فى الطريق الشرقى للعاصمة السوفيتية ، يجب أن يصل إليها قبل غروب الشمس ..

وبنفس الهدوء ، ألقـى نظرة على ساعة معصمـه ، ثم اتجه إلى واحدة من كبرى محطات مترو الأنفاق ..

كانت خطته تقتضى استخدام وسائل المواصلات العامة طوال الوقت ، وعبر الخطوط الرئيسية ، التى ينـدر أن يلجأ إليها هـارب ، تطارده كل سلطات الأمن السـوفيتية ، الشـهيرة بعنفها وشراستها وقسوتها ..

وعند مدخل محطة المترو ، كان هنـاك اثنـان من شباب المخابرات السوفيتية المدربين ، يطـالعون وجوه الـرواد ، بنظرات فاحصة دقيقة ، دون أن يستوقفوا أحدًا ، ولو لمراجعة أوراق تقليدية ..

ولقد انتبه هو إلى هذا ، والتقط نفسًا عميقًا ، من الهـواء قـارص البرودة ، وهو يواصل طريقـه ، وعينـاه ترصـدان الشابين ، فى معطفيهما السميكين ، اللذين لم ينجح سمكهما فى إخفاء المسدسين الكبيرين ، المعلقين تحت إبطيهما ..

ولأنه رجل مخابرات محترف ومدرَّب ، واصل (داريل) طريقه بنفس الهدوء ، حتى بلغ مدخل المحطة ..

وبحركة غريزية ، بدت طبيعية تمامًا ، رفـع عينيه ، ليتطلَّع إلى وجهى الشابين لحظة ..

لحظة واحدة ، أدرك معها أن أحدهما يتفحَّصه بنظرة ثاقبة ..

وعلى الرغم من أن مهمته كانت تحتم عليه ألا يحمل سلاحًا ، إلا أن ذراعه قد تحسَّست ، بحركة غريزية ، ذلك الموضوع الذى يحتله مسدسه فى المعتاد ، قبل أن يشيح بوجهه ، ويهبط فى درجات سلم محطة المترو ، وعقله يتساءل عما سيفعله ذلك الشاب السوفيتى ، فى اللحظة التالية ..

ولكن الشاب لم يفعل شيئًا على الإطلاق ..

كل ما فعله ، هو أن تابعه ببصره ، حتى هبط إلى عمق المحطة ، ثم التقط جهاز الاتصال اللاسلكى من جيبه ، وانتحى جانبًا ، بعيدًا عن مسامع المارة ، وهو يضغط أزراره فى سرعة ، قبل أن يقول :

- لقد رصدناه أيها الرفيق (فيدروف) .

سأله (فيدروف) فى اهتمام :

- كيف هو ؟!

أجابه الشاب ، فى سرعة وحزم :

- لقد أبدل ملامحه كما توقَّعت ، ولكن تدريباتنا ساعدتنا على تعرُّفه .

اعتدل (فيدروف) ، وهو يقول فى حزم :

- عظيم ... نفذ برنامج متابعته جيِّدًا .. المهم ألا يشعر لحظة واحدة أننا نتبعه .. وأبلغنى بموقعه أوَّلاً فأوَّلاً .

قالها ، وأنهى المحادثة ، وحاجباه الكثان منعقدان فى شدة ، فسأله الكولونيل (ماينهوف) فى توتر :

- لقد ظفرنا به .. أليس كذلك ؟!

أشار إليه (فيدروف) برأسه إيجابًا ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- لقد أبدل ملامحه كما توقَّعت ، ولكن ..

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف ، وهو يداعب ذقنه بسبَّابته وإبهامه ، كعادته كلما استغرقه التفكير بشدة :

- ليس بالقدر الكافى .

انعقد حاجبا (ماينهوف) بشدة وتوتر ، وهو يتطلَّع إليه فى عصبية ، قبل أن يلوِّح بيده ، قائلاً :

- الواقع أننى لم أعد أفهمك .. أيها الرفيق الماجور .

رفع (فيدروف) عينيه إليه فى بطء ، قبل أن يغمغم ، على نحو يوحى بأنه يحدِّث نفسه :

ـ ربما هذا هو المقصود بالضبط .

وعاد إلى صمته الغامض ، بضع لحظات أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ أن نعجز عن الفهم .

وارتفع حاجبا (ماينهوف) ، فى دهشة شديدة التوتر ..

ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة ..

على الإطلاق ..

أما (داريل) ، فقد استقل مترو الأنفاق ، وجلس داخله هادئًا مسترخيًا ، وكأنما لا يشغل باله شىء ، وقطع به ست محطات كاملة ، قبل أن ينتقل منه إلى مترو آخر ، ويبتاع جريدة سوفيتية ، راح يطالعها بمنتهى الاهتمام ، وعلى نحو جعله أشبه بموظف حكومى نمطى ، عاد من عمله على التو ، عبر ثمان محطات أخرى ..

وعند أطراف العاصمة ، غادر (داريل) محطة المترو ، وسار عبر الشوارع ، فى هدوء واسترخاء مستفزين ، وتوقَّف لثلاث مرات أمام واجهات بعض المتاجر الكبيرة ؛ ليتيقَّن من أن أحدًا لا يتبعه ، وبعدها استقل حافلة شعبية بسيطة ، تتجه نحو الطرف الشرقى للعاصمة (موسكو) ..

وبأسلوب دقيق مدروس ، توقَّف ذلك الذى يتبعه ، عند محطة الحافلات الشعبية ، وتظاهر بأنه ينتظر حافلة أخرى ، فى حين برز آخر ، استقلَّ الحافلة نفسها مع (داريل) ، كأنما حدث هذا بأسلوب تلقائى عشوائى تمامًا ..

وعبر شوارع صغيرة نصف ممهدة ، قطعت الحافلة رحلتها ، حتى انتهت عند محطة صغيرة ، فى منطقة مزدحمة بالسكان ، من العمال وصغار الموظفين ، وهناك غادرها رجل المخابرات الأمريكى ، وراح يتحرك فى براعة وحنكة وسرعة ، شأن أى خبير ، حتى يتأكَّد من استحالة متابعته ـ قبل أن يتوقَّف ، ويرصد المكان بعينين فاحصتين ، ثم يتجه أخيرًا نحو تلك الحانة الصغيرة ، فى الطريق الشرقى البعيد للعاصمة ..

وفور لختفائه داخلها ، برز أحد رجال المخابرات السوفيتية عند الناصية البعيدة ، والتقط من حزامه جهاز اتصال لاسلكى ، ضغط زره فى حزم ، قائلاً :

ـ الصيد وصل إلى هدفه ، أيها الرفيق (فيدروف) .

هبَّ (فيدروف) من مقعده ، وهو يسأله :

ـ وأين الهدف بالضبط ؟!

وصف له رجل المخابرات تلك الحانة الصغيرة ، عند الطرف الشرقى للعاصمة ، فسأله (فيدروف) فى اهتمام :

ـ ألها أية مداخل أو مخارج أخرى ؟!

راجع رجل المخابرات خريطة صغيرة يحملها ، قبل أن يجيب بمنتهى الحزم والحسم :

ـ كلاً أيها الرفيق .

همَّ (فيدروف) بقول شىء ما ، إلا أن الألمانى الشرقى (ماينهوف) اختطف سمّاعة الاتصال منه ، وهو يقول فى انفعال :

ـ حاصروا المكان بمنتهى الدقة إذن أيها الرفيق ، حتى أصل إليكم ، وألقى القبض عليه بنفسى .

وأنهى الاتصال فى حماس ، ثم التفت إلى (بيدروف) بعينين متألقتين ، وقال :

ـ لم تصنع قيادتك للعملية فارقًا كبيرًا ، أيها الرفيق (فيدروف) .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا (فيدروف) ، دون أن يجيب بحرف واحد ، فى حين اندفع (ماينهوف) يلتقط قبعته العسكرية ، ويغادر

المكان فى سرعة ، تاركًا إياه خلفه صامتًا ، يواصل اعتصار عقله أكثر وأكثر ..

وفى بطء ، ودون كلمة واحدة ، اتجه (فيدروف) نحو خريطة كبيرة للعاصمة (موسكو) ، وراح يطالعها لبعض الوقت ، وفى ذهنه تتصاعد فكرة عجيبة مجنونة ..

مجنونة بحق ..

* * *

٦ ـ الغـــريب ..

● لم يكد ذلك العميل غير المألوف ، يدلف إلى الحانة الصغيرة ، فى طرف العاصمة السوفيتية ، حتى ران على المكان صمت تام ، وتعلقت كل العيون بالقادم ، فى تساؤل واضح ، لم يبال هو به كثيرًا ، وهو يتجه نحو الساقى ، ويقول بلغة روسية سليمة :

ـ كأس مزدوجة من الفودكا مع الجين .

مطَّ الساقى شفتيه ، وهو يقول فى حذر :

ـ الفودكا يفسد مذاقها ، إذا ما اختلطت بأية مشروبات أخرى .

قال الغريب بمنتهى الهدوء :

ـ هكذا أفضلها ..

هزَّ الساقى كتفيه فى لامبالاة ، ووضع أمامه كوبًا من الزجاج ، صب فيه مزيجًا من المشروبين ، وهو يهمس :

ـ ليس من المعتاد أن يتناول روسيًا مشروبًا كهذا .

نطقها بإنجليزية ركيكة ، فالتقط الغريب الكوب ، وارتشف منه رشفة ، وهو يهمس بدوره :

ـ وليس معتادًا أيضًا ، من حيث أتيت .

استخدم الإنجليزية أيضًا ، فالتقط الساقى نفسًا عميقًا ، والتقط ممسحة قديمة ، تظاهر بتنظيف البار بوساطتها ، وهو يهمس بلغته الأم :

ـ فى المخزن الخلفى ستجد برميلاً كبيرًا ، يمتلئ ببعض الماء القذر ، اركل قاعدته مرتين بسرعة ، وسيدور حول نفسه ، ليكشف مدخل قبو سرى .

والتقط نفسًا آخر ، قبل أن يضيف :

ـ وهناك ستجد ما تبحث عنه .

ارتشف الغريب رشفة أخرى من الكوب ، دون أن يبدو عليه حتى إنه قد سمع ما قاله الساقى ، ثم ألقى روبلاً سوفيتيًا على البار ، وغادر المكان بنفس الهدوء والرصانة ، اللذين دخله بهما ..

ولبضعة أمتار فحسب ، وحتى تجاوز نظرات الفضول ، التى تبعته عبر نوافذ الحانة الصغيرة ، ظلّ يسير هادئًا ، ثم لم يلبث أن انحرف فى خفة ، ودار حول الحانة ، حتى بلغ المخزن الخلفى ، فدلف إليه فى سرعة ، ودار ببصره فيه ، قبل أن يتجه نحو البرميل مباشرة ، ويركل قاعدته مرتين فى سرعة ..

وفى حركة هادئة ناعمة ، تشفّ عن تقنية متطوِّرة ، دار البرميل الثقيل حول نفسه ، كاشفًا فجوة مستديرة ، هبط الرجل عبرها فى خفة ومرونة ، و ....

« أفصح عن هويتك ، قبل أن أنسف رأسك ، برصاصة من مسدسى .. »

نطق (رابينوفيتش) العبارة ، فى عصبية شديدة ، وهو يلصق فوهة مسدسه بصدغ القادم ، الذى لم يفقد هدوءه لحظة واحدة ، وهو يقول :

ـ هويتى ليست غامضة يا (جوجول) ؛ فأنت تنتظر قدومى ، منذ بضعة أيام .

انعقد حاجبا (رابينوفيتش) فى شدة ، عندما سمع ذلك الاسم الكودى ، الذى تخاطبه به المخابرات الأمريكية ، وقال فى عصبية :

ـ هل اتخذتم كل الاحتياطات اللازمة ؟!

أجابه القادم فى هدوء بالغ :

ـ اطمئن .

تبادل (رابينوفيتش) نظرة عصبية ، مع ذلك الشيخ ، ذى اللحية الكثة البيضاء ، ثم تساءل ، فى شىء من الشراسة :

ـ لست أعنى الحصول على عينة (إكس ـ ١٠٧) فحسب .. إننى أتحدَّث عنى أيضًا .

سأله الرجل فى هدوء ، وهو ينزع أحد قفازيه :

ـ وماذا عنك ؟!

مال (رابينوفيتش) نحوه ولوَّح بمسدسه فى وجهه ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

ـ ما الذى رتبتموه ، لإخراجى من هنا ؟!

تطلَّع إليه الرجل بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ أنت تعلم أن هذا سيستغرق بعض الوقت ، و ...

قاطعه (رابينوفيتش) فى حدة :

ـ هــراء .

انعقد حاجبا الرجـل فى حـذر ، فتابع (رابينوفيتش) فـى غضب :

ـ لن تحصلوا على عينة (إكس ـ ١٠٧) ، إلا بعد أن تؤمنـوا لى وسيلة للخروج من هنـا .. لـن تظفروا أنتم بمبتغاكم ، وتتركوننى هنا ، فى قبضة زملائى ، بعد أن انكشف أمرى لهم .. أنتم تعلمون أنهم لن يتورَّعوا عن تمزيقى إربًا ، دون أدنـى رحمة أو شفقة .

تماسك الرجـل على نحو مدهش ، أثـار إعجاب الشيخ بحق ، وهو يجيب بمنتهى الهدوء :

ـ أنت تعلم أنه لكل مرحلة ...

قاطعه (رابينوفيتش) مرة أخرى ، فى ثورة عارمة :

ـ لا مناقشة .. هذا قرارى الأخير .

وهنا التقى عينا الرجل فى صرامة ، وقال :

ـ اسمع يا (جوجول) .

قبـل أن يتـم عبارتـه ، انتفض جسد الشـيخ بغتـة فـى عنف ، وانعقـد حاجبا الرجـل ، وكلاهمـا يرفـع رأسـه إلـى أعلى ، فى حين امتقع وجه (رابينوفيتش) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ لقد .. لقد أتوا مرة أخرى .

ومع كلمـاته ، تعالى وقع أقـدام عسكرية ثقيلة تقترب .. وتقتـرب .. وتقتـرب .. وفى نفس اللحظـة ، كانـت سيَّارة (ماينهوف) تصل إلى تلك الحانة فى الطرف الشرقى من العاصمة ، ويهبط منها هذا الأخير ، هاتفًا برجالـه فـى حزم صارم :

ـ حاصروا المنطقة كلها .. وأطلقوا النار على كل من يحاول الفرار منها .

التفَّ رجاله حول الحانة الصغيرة ، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، وتقدَّم هو نحوها ، فى خطوات واسعة قوية ، وهو يعدِّل قبعته العسكرية على رأسه ، صائحًا فى قسوة :

ـ ماذا تنتظرون ؟!

ومع قوله ، اقتحم الرجال الحانة فى عنف ، وارتفعت فوهات مدافعهم الآلية فى وجوه نزلائها ، الذين هبوا من مقاعدهم ، فى توتر بالغ ، مع ذعر أسقط الكئوس من بين أصابعهم ، وهم يتراجعون جميعًا للالتصاق بالبار الخشبى الكبير ، والساقى يهتف فى عصبية :

ـ ماذا هناك أيها الرفيق ؟! ماذا حدث ؟!

صاح به أحد الجنود فى خشونة :

ـ اصمت يا رجل .

أطبق الرجل شفتيه فى قوة ، وخفق قلبه فى هلع ، وهو يتطلَّع إلى الغريب الوحيد فى الحانة ، والذى حافظ على

هدوئه ، على نحو عجيب ، وهو يرتشف كأسه فى بطء ، ويتطلَّع إلى الجنود بنظرة لا مبالية ..

حتى دخل (ماينهوف) ..

ومع دخوله ، والرتبة الكبيرة ، التى تلتمع على كتفيه وصدره ، وجلت قلوب الجميع ، وكادت تنخلع ، مع صيحة قائد الجنود :

ـ انتباه .

الغريب وحده لم يبال بالأمر على الإطلاق ، وهو يواصل ارتشاف كأسه ، متجاهلاً الموقف كله ، فاستدارت إليه عينا (ماينهوف) فى غضب صارم ، قبل أن يعقد كفيه خلف ظهره ، ويتجه نحوه ، فى مشية عسكرية ، بدت ألمانية صرفة ، ثم يتوقف على قيد خطوة واحدة منه ، ليسأله فى صرامة :

ـ أوراقك أيها الرفيق .

ناوله (داريل) جواز سفره فى هدوء ، وهو يقول :

ـ اسمى (داريل) .. (سِلم داريل) .. دبلوماسى فى البعثة الأمريكية ، وأحب أن أذكِّرك بالقانون الدولى ، الذى ....

قاطعه (ماينهوف) فى صرامة :

ـ أعرف كل هذا .. أعرفه ، وأستعد له تمامًا .

ارتسمت ابتسامة ساخرة ، على شفتى (داريل) ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

رمقه (ماينهوف) بنظرة قاسية ، وهو يراجع أوراقه على عجل ، قبل أن يدسَّها فى جيبه ، ويميل نحوه ، ليسأله بمنتهى الصرامة :

ـ أين عميلكم أيها الرفيق (داريل) ؟!

هزَّ (داريل) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ليست لدى أدنى فكرة .

قالها ، وهو يبتسم ابتسامة واسعة واثقة ..

هذا لأنه كان صادقًا فى إجابته بالفعل ..

صادق تمامًا ..

* * *

٧ ـ شرق .. وغرب ..

• « أنت أحضرتهم إلى هنا .. »

هتف (رابينوفيتش) بالعبارة فى غضب ، وهو يقبض على رقبة الغريب ، قبل أن يتابع فى ثورة :

ـ إما أنك لم تنجح فى خداعهم ، والإفلات من مطاردتهم ، أو .. أو أنك تعمل لحسابهم أيها الحقير .

انزلق الغريب فجأة ، بحركة بالغة المرونة ، جعلته يفلت من بين أصابعه ، ثم دار حوله فى خفة ورشاقة ، وقبض على معصمه ، ولواه خلف ظهره بحركة سريعة قوية ، وهو يقول فى حدة :

ـ اهدأ أو تماسك يا رجل .. ضباط المخابرات لا يفقدون أعصابهم على هذا النحو .

نطقها بإنجليزية صرفة ، وهو يدفع (رابينوفيتش) أمامه فى قسوة ، ليضربه بالجدار ، فهتف هذا الأخير فى حدة :

ـ لهجتك .. إنك لست أمريكيًا .

أجابه الرجل بكل صرامة :

- بالطبع .. إننى لست كذلك على الإطلاق .

ثم مال نحوه ، مستطردًا بلهجة أكثر صرامة :

- أنا عميل مخابرات بريطانى .

هتف (رابينوفيتش) ، فى عصبية بالغة مستنكرة :

- بريطانى ؟!

لم يكد هتافه ينطلق من بين شفتيه ، حتى دار البرميل فوق رءوسهم ، وكشف عن فتحة القبو السرى ، فصرخ الشيخ فى رعب :

- لقد أتوا .

مع صرخته ، وبسرعة مدهشة ، تشفّ عن المران والقوة ، وحسن التدريب ، وطول الممارسة ، وثب فريق من الجنود داخل القبو ، وانقضوا على كل من فيه بمنتهى العنف ..

واستدار عميل المخابرات البريطانى ، فى محاولة لمقاومة الجنود ، إلا أن أحدهم هوى على مؤخرة عنقه بكعب مدفعه ، فى نفس اللحظة التى انقضّ فيها جنديان آخران على (رابينوفيتش) ، وكبلا حركته تمامًا ، وثالث يلصق فوهة مدفعه الآلى بعنقه ..

وفى هدوء تام ، وبعد ضمان السيطرة الكاملة على الموقف ، هبط (فيدروف) إلى القبو ، وهو يقول فى هدوء ، وبلهجة إنجليزية سليمة :

- هل أفسدت لقاءكما الطريف هذا ؟!

نهض العميل البريطانى ، وهو يمسك مؤخرة عنقه ، وقال فى شىء من الحزم والصرامة :

- أحذرك يا ماجور إننى أحمل جواز سفر دبلوماسى ، و ....

قاطعه (فيدروف) فى برود ، وهو يتخذ مقعدًا صغيرًا ، فى منتصف القبو ، وينزع قفازيه فى هدوء :

- هذا لن يصنع فارقًا .

قال البريطانى فى صرامة :

- أهذا ما تتصوَّره ؟! وفقًا للقانون الدولى ، أن يتم ..

قاطعه (فيدروف) مرة أخرى ، بنفس البرود :

- قلت لك : هذا لن يصنع فارقًا .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا :

- فلا أحد يمكنه أن يعترض على حادثة سير ، احترق بسببها قائد سيارة دبلوماسية بريطانى ، حتى تفحمَّت جثته .

أدرك البريطانى ما يعنيه رجل المخابرات السوفيتى بقوله ، فأطبق شفتيه فى توتر ، فى حين بدا (رابينوفيتش) شديد التوتر ، وهو يقول :

- الرحمة أيها الرفيق (فيدروف) .. الرحمة .

رمقه (فيدروف) بنظرة باردة كالثلج ، قبل أن يتجاهله تمامًا ، ويدير عينيه إلى البريطانى ، قائلاً :

- دعنى أولاً أهنئكم ، على التعاون المشترك ؛ بين المخابرات المركزية الأمريكية ، والمكتب السادس البريطانى .. الواقع أنكم نجحتم فى خداعنا ، على نحو مبتكر وطريف ، فقد جذب الأمريكى انتباهنا ، وشتَّت تفكيرنا طوال الوقت ، ونحن نترقبه ، ونتعقَّبه عبر (موسكو) كلها ، حتى تلك الحانة الصغيرة ، فى شرق المدينة ، فى حين تقوم أنت باللقاء الفعلى أيها البريطانى ، هنا فى أقصى الغرب .

ثم ابتسم فى شىء من السخرية ، متابعًا :

- أطرف ما فى الأمر هو عندما أتخيَّل الرفيق (ماينهوف) هناك ، فى تلك الحانة الصغيرة ، فى شرق المدينة ، يحاول عبثًا انتزاع أية معلومات ، من رجل المخابرات الأمريكى هناك .. إنه موقف يستحق التسجيل بالفعل ، حتى إننى طلبت من أحد الرجال تصويره ، والاحتفاظ بالفيلم فى أرشيفى الخاص .

ازدرد البريطانى لعابه ، وهو يسأله فى توتر :

- وكيف توصلَّت إلىَّ ؟!

هزّ (فيدروف) كتفيه فى برود ، قائلاً :

ـ كنت أشعر طوال الوقت أن الأمور لاتسير على ما يرام .. لذا فقد أعدت دراسة الموقف كله ، وعندما توصلّت إلى اللعبة ، راجعت قوائم كل القادمين إلى (موسكو) ، ثم رأيت أمامى صورتك يا (رينهارت) .

بدا الانتباه واضحًا ، على وجه العميل البريطانى ، عندما سمع اسمه ، فابتسم (فيدروف) ، وهو يتابع :

ـ (والتر رينهارت) .. بطل عملية (جنيف) الشهيرة .. كيف يمكننى أن أنساك ، وقد تلقيت هزيمتى الوحيدة فى مضمارنا على يديك هناك .. لقد تعرّفتك ، وقمت بتعقُّب مسارك ، عبر شبكة علاقاتنا المدربين ، حتى قادنى البحث إلى هنا ، أما كشف مدخل القبو السرى ، فهو ليس بالأمر العسير ، بالنسبة للمحترفين أمثالنا .

غمغم (رينهارت) :

ـ بالتأكيد .

ازدرد الشيخ لعابه ، عند هذه النقطة ، وحاول تبرئة نفسه ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ أيها الرفيق الماجور .. لقد أجبرونى على الـ .....

قبل أن يتمّ عبارته ، استدار إليه (فيدروف) بحركة سريعة ، واستل مسدسه ، و .....

وأطلق النار ..

رصاصة واحدة ، عبر كاتم للصوت ، بدا دويُّها مكتومًا مختنقًا ، قبل أن تتسع عينا الشيخ عن آخرهما ، ويسيل خيط من الدم ، من منتصف جبهته تمامًا ، وسال على وجهه عبر أنفه وفمه المشدوه ، حتى لوّث لحيته البيضاء الكثّة ، قبل أن يهوى على وجهه جثة هامدة ..

وفى هدوء بارد ، وكأنما لم يفعل شيئًا ، أعاد (فيدروف) مسدسه إلى غمده ، وهو يستدير إلى (رابينوفيتش) ، ويسأله :

ـ أين (إكس ـ ١٠٧) يا (أندريه) ؟!

ازدرد (رابينوفيتش) لعابه فى صعوبة ، وهو يتمتم :

ـ لا بد وأن نتفق أولاً ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، استل (فيدروف) مسدسه مرة أخرى ، بحركة مباغتة سريعة ، وأطلق رصاصة مكتومة ثانية ..

رصاصة اخترقت ركبة (رابينوفيتش) اليسرى ، فتخاذلت قدم هذا الأخير ، وهو يطلق صرخة ألم رهيبة ، تردّد صداها فى القبو كله ، على نحو سرت معه قشعريرة باردة كالثلج ، فى جسد البريطانى ، فى حين تساءل (فيدروف) بعدها ، بمنتهى البرود :

ـ أين عينة (إكس ـ ١٠٧) ؟!

هتف (رابينوفيتش) ، وهو يعض شفتيه ألمًا :

ـ لو أخبرتكم ، فسوف ...

قاطعته رصاصة أخرى ، حطمت عظمة كتفه اليمنى ، فصرخ من فرط آلامه المبرحة :

ـ هناك .. أسفل تلك القارورة هناك .

أشار (رابينوفيتش) إلى أحد الرجال الأربعة ، المصاحبين له ، فاندفع نحو القارورة الكبيرة ، وأزاحها ، والتقط من تحتها تلك القارورة الصغيرة ، التى تحوى عينة الدم ، مع فيروس (إكس ـ ١٠٧) ، وألقاها إلى (فيدروف) ، الذى التقطها فى خفة ، ثم دسّها فى جيبه ، وابتسم ابتسامة باردة ، قائلاً :

ـ أشكرك يا (أندريه) .. لقد وفّرت لى وقتًا طويلاً .

قالها ، وهو يرفع فوهة مسدسه مرة أخرى ..

ثم يقدم على أمر عجيب ، غير متوقّع ..

على الإطلاق .

* * *

٨ـ الخـــدعــة ..

● احتقن وجه (فريدريك ماينهوف) ، الألمانى الشرقى ، رجل المخابرات السوفيتية القديم ، عندما قلب رجاله الحانة رأسًا على عقب ، دون أن يجدوا أى أثر ، لما يمكن أن يتطرّق إليه الشك ، فى حين ظلّ (داريل) هادئًا ، يقول فى لامبالاة ، وهو يرتشف كأسه :

ـ ما زلت أذكرك بالقانون الدولى أيها الرفيق ، و ...

قاطعه (ماينهوف) فى حدة :

ـ كفى أيها الأمريكى .. أنا أحفظ القانون الدولى عن ظهر قلب ، وأعلم أنه يمنحك نوعًا من الحصانة الدبلوماسية ، التى لا تتيح لنا اعتقالك ، ولكنها لا تمنعنا من طردك شر طردة .

هزّ (داريل) كتفيه ، قائلاً :

ـ وهل تتصوّر أن هذا سيحزننى ؟!

احتقن وجه (ماينهوف) أكثر ، وهو يهتف بأحد رجاله ، وما إن هرع إليه الرجل ، حتى قال بلهجة آمرة صارمة :

ـ ألق القبض على الرفيق (داريل) ، وأرسله مباشرة إلى مقر البعثة الدبلوماسية الأمريكية ، وأبلغهم هناك رسميًا ، أنه شخص غير مرغوب فى تواجده ، داخل حدود الاتحاد السوفيتى ، وأننا نمنحه أربع وعشرين ساعة فحسب لمغادرته ، وإلا فسنلقى القبض عليه ، ونلقيه فى غياهب أعمق سجوننا ، حتى ولو تمتع بحماية الأمم المتحدة بأكملها .

أطلق (داريل) ضحكة قصيرة ساخرة ، وهم يقودونه خارجًا ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ لا يمكنك أن تتصوّر ، كم يعتصر الحزن قلبى .

انعقد حاجبا (ماينهوف) بشدة ، وهو يراقب انصرافه ، وعقله يطرح عليه سؤالاً عصبيًا غاضبًا .

لو لم يكن (رابينوفيتش) هنا ، فأين يختبئ ؟! أين ؟!

فى نفس اللحظة ، التى طرح فيها على نفسه السؤال ، كان جسد العميل البريطانى (والتر رينهارت) ينتفض فى عنف ،

وعيناه تتسعان عن آخرهما ، مع ذلك الأمر العجيب المفاجئ ، الذى أقدم عليه (فيدروف) ، دون سابق إنذار فما إن استرد تلك القنينة الصغيرة ، التى تحوى عينة (إكس ـ ١٠٧) ، حتى أدار فوهة مسدسه ، المزوّد بكاتم للصوت ، وأطلق رصاصاته الصامتة ، فى سرعة وخفة وبراعة ..

أربع رصاصات ، انطلقت نحو أركان القبو الأربعة ، فى سرعة مدهشة ، ليتساقط معها أربعة رجال ..

جنـوده ..

رصاصاته المتقنة اخترقت جباه أربعتهم ، فى أقل من ثانية واحدة ، فدارت أجسادهم حول نفسها ، ثم هوت جثث هامدة ، و(رابينوفيتش) يهتف فى ذهول مذعور :

ـ ولكن .. ولكن لماذا ؟!

نهض (فيدروف) بنفس البرود ، قائلاً :

ـ لا أحد سواهم يعرف هذا المكان ، ويدرك الخدعة التى قمتم بها ، والتى كشفتها أنا .

انعقد حاجبا البريطانى ، وهو يتساءل فى حذر :

ـ ما الذى ترمى إليه بالضبط يا ماجور ؟!

ابتسم (فيدروف) ابتسامة غامضة ، وهو يجيب :

ـ انتصار مزدوج ، أيها الرفيق (رينهارت) .

قالها ، والتقط قنينة (إكس ـ ١٠٧) من جيبه ، ولوّح بها ، قائلاً :

ـ لقد استعدت (إكس ـ ١٠٧) ، وأوقعت بالعميل الخائن المنشق .

اتسعت عينا (رابينوفيتش) فى ارتياع ، فى حين تساءل البريطانى فى حذر :

ـ كل هذا يندرج تحت بند الانتصار المنفرد .

ارتجف صوت (رابينوفيتش) ، وهو يقول :

ـ أنا أعلم كيف يجعل منه انتصارًا مزدوجًا .

أدار (فيدروف) عينه إليه فى بطء ، قائلاً :

ـ وهذا يعنى أنك أكثر ذكاءً من الآخرين ..

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف :

ـ وأكثر خطورة أيضًا .

ومع قوله ، ضغط زناد مسدسته مرة أخرى ، فانطلقت منه رصاصة ، نسفت رأس (رابينوفيتش) ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، فى ألم وارتياع ، قبل أن يهوى بدوره جثة هامدة ..

وفى عصبية واضحة ، قال البريطانى :

ـ حان دورى إذن .. أليس كذلك ؟!

رفع (فيدروف) عينيه إليه بدهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ دورك ؟! يبدو أنكم لستم بالبراعة التى تدعونها دومًا ، يا رجال المكتب السادس ؛ فلو أنك تمتلك الخبرة الكافية ، لتعرَّفت طراز سلاحى ، وأدركت أن خزانته تحوى ست رصاصات فحسب ، أى أنها أصبحت خالية الآن .

غمغم البريطانى فى صرامة :

ـ يمكنك أن تضيف رصاصة سابعة ، فى ماسورة المسدس .

هزَّ (فيدروف) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أميل إلى هذا أبدًا .. وعلى كل حال ، فقد فهم (أندريه) ما عجزت أنت عن فهمه .. فهم ما عنيته بتحقيق الانتصار المزدوج .

ثم نهض فى حزم ، مضيفًا :

ـ أريد أن أعمل لحسابكم .

انعقد حاجبا (رينهارت) فى شدة ، و(فيدروف) يتابع :

ـ ربما لا يروق لى العمل لحساب الأمريكيين ، الذين نشأت على كراهيتهم وبغضهم ، ولكننى أميل للعمل معكم أيها البريطانيون بمقابل مجز بالطبع .

تردَّد البريطانى ، وهو يقول فى حذر :

ـ كل ما أملكه ، وهو أن أعرض الأمر على رؤسائى .

ابتسم (فيدروف) ، قائلاً :

ـ لن تحتـاج إلى تقديم عرض جديد .. أخبرهم فحسب أنك قد التقيت بالعميل (إيفان) .

التمعت عينا البريطانى ، وهو يهتف :

ـ (إيفان) ؟! أنت من يمدنا بالأسرار السوفيتية ، ويعرض علينا خدماته ، منذ ثلاثة أشهر .

أشار (فيدروف) بسبّابته ، قائلاً :

ـ ودون مقابل أيها الرفيق (رينهارت) .. حتى هذه اللحظة فحسب .. أما الآن ، وبعد أن بدأنا اللعب بأوراق مكشوفة ، فسأطلب مقابلاً سخيًا .. وبأثر رجعى .

اعتدل (رينهارت) ، وشدّ قامته ، قائلاً فى حزم :

ـ أظنك ستحصل على ما تبتغيه .

استدار (فيدروف) ، وهو يقول :

ـ عظيم .

راقب (رينهارت) حركة يديه ، وهو يوليه ظهره ، وتساءل فى حذر زائد :

ـ وماذا بالنسبة لعينة (إكس ـ ١٠٧) .

استدار إليه (فيدروف) ، قائلاً :

ـ ستحصل عليها .

وفى نفس اللحظة ، التى انتبه فيها (رينهارت) ، إلى المحقن بين أصابعه ، كان (فيدروف) ينقض به ، ويغرز إبرته فى ذراعه ، ويضغط بقوة ، مستطردًا فى لهجة أقرب إلى السخرية :

ـ وستتجاوز بها كل وسائل التفتيش والمراقبة .

اتسعت عينا (رينهارت) فى ارتياع ، ولكن(فيدروف) اعتدل ، ودس القنينة فى جيبه ، مكملاً بابتسامة هادئة باردة :

ـ فترة حضانة الفيروس ثلاثين ساعة تقريبًا ، وهذا يعنى أنك ستصل إلى (لندن) ، قبل أن يدخل فى طور المرض

المعدى ، لو غادرت (موسكو) على الفور ، وهناك يمكنهم أن يحصلوا على العينة من دمك ، وليسرعوا بعمل المصل الواقى .. من أجل حياة رجلهم على الأقل .

احتقن وجه البريطانى بشدة ، وهو يقول :

ـ لابد .. لابد وأن أنصرف على الفور .

أفسح له (فيدروف) الطريق ، قائلاً :

ـ على الرحب والسعة .

وانطلق (رينهارت) بأقصى سرعة ، وغادر (موسكو) بالفعل ، بعد ساعتين فحسب ..

وبالنسبة للأوراق الرسمية السوفيتية ، استعادت مخابراتهم عينة (إكس ـ ١٠٧) ، وتخلصت من عميلها الخائن (رابينوفيتش) ، وانتصرت فى عمليتها ..

أما الأوراق البريطانية ، التى انكشفت مؤخرًا ، وفقًا لقانون الوثائق السرية ، فقد أعلنت الحقيقة الفعلية ، بعد

سنوات من سقوط الاتحاد السوفيتى ، وجهاز مخابراته العريق ..

حقيقة الفائز ، فى تلك العملية البيولوجية الرهيبة ..

عملية (إكس ـ ١٠٧) ..

سابقًا .

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس





د. نبيل فاروق

صفحة

صراع العقول

الذى يتفوق

دوماً على أعتى

الأسلحة والمعدات



الثمن فى مصر ٣٠٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى

فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

مطابع

